

المجلد الحادي والعشرون

جمادى الأولى سنة ١٣٦٩

مجلة الأزهر



مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامية

تصديقاً لرؤية عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

مَجَلَّةُ الْأَزْهَرِ

المجلد الحادى والعشرون



الاشتراك السنوى

٤٠	للمصر والسودان
٥٠	لخارج القطر المصرى

ثمن العدد ٤٠ ملياً

إدارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر ، الإمامة الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر

١٩٥٠

وفي كل يوم يطالعنا حفظه الله بمنة جديدة يطوق بها أعناقنا نحن رجال الدين ؛
فقد رأى - أعزه الله - أن يكون تعميم الدين والقرآن الكريم في جميع المدارس
مادة أساسية ؛ لينشأ الجيل كله على رعاية فضائل الدين والتمسك بأحكامه . وما كادت
هذه البشرى تزف إلى الشعب الحريص على دينه المتمسك بعقائده حتى أتبع المنة
بمنة عظيمة خالدة : هي أمره حفظه الله بجمع الصحاح من السنة النبوية المطهرة
وترتيبها وفهرستها وطبعها على نفقة جلالاته ، وتيسيرهما لجميع المسلمين في شتى بقاع
العالم ، فآتم الفاروق بهذه النعمة السامية رسالة والده العظيم المغفور له الملك فؤاد
الأول ، طيب الله ثراه !

صاحب الجلالة ! إن مصر في هذا اليوم السعيد لتباهي الأمم بما حباها الله
من فضل رعايتك وفيض نوالك . فقد سطرت بحايل أعمالك وعظيم ما أثرك صفحة
خالدة في تاريخها ، هي في الحق أبهى صفحاتها وأجلها قدراً . وإن أياديك الفر
على الوادى السعيد ، ومنتسك على أبنائه المخلصين لسدتك ، المتقلبين في نعمتك
الذاكرين لآلائك ، لأجل من أن يحصوها عد أو يني بشكرها ما تردده آناء الليل
وأطراف النهار قلوبهم من توسل ودعاء إلى الله أن يحفظ عرشك ويصون ملكك ،
ويبقىك ركنا حصينا للدين وذخراً للوطن .

حفظك الله يا مولاي ورعاك وسدد خطاك ، ووفق حكومتك إلى ما فيه خير
البلاد ، وأعاد أمثال أمثال هذا العيد على الأمة المصرية والشعوب الإسلامية
في ظل عرشك الممدود وعطفك الشامل .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان ، أن تتفقد برحمتك ورضوانك
الراحل الكريم ، مولاي الملك المعظم ، صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاداً
الأول . اللهم اجعله في أعلى عاين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدِّينُ وَالْدُنْيَا مَعًا

ليس خيركم من ترك آخرته لدنياه ولا دنياه
لآخرته، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه

وقر في نفوس أكثر الناس، ومنهم بعض المسلمين، أن الأديان لا تؤدي إلى المدنية، وأنها تؤثر شظف العيش على رغبته، وأنها تقف جهود أهلها على العبادات وقمع الرغبات. وهذا خطأ محض، وبُعد عن فهم مرامي الأديان، وخاصة الإسلام. فقد شرعت الأديان لحفظ نظام الجماعات، ونهج طرق السعادة الصحيحة لهم، وهي لا تنحصر في كثرة المال ولا في قلة ما يظنه أكثر الناس، ولكنها تتوقف على فقه معنى الحياة البشرية، وعلى معرفة الأصول التي توصل إلى إبلاغها إلى غايتها التي وضعت لها؛ فكم من غنى لم يذق للسعادة طعمها، ومن مُقل وصل إلى نهايتها البعيدة، والعكس صحيح أيضًا. بل التناهي في الإقلال شر على أصحابه من التناهي في الاستكثار. وقد تعود النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر، ودعا ربه أن يجعل رزقه ورزق آله كفافًا.

نعود إلى موضوعنا الرئيسي فنقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم على تخيره لنفسه الكفاف على الغنى لم يحتمل الثراء، كيف وقد عبر الله عنه بكلمة الخير في قوله تعالى: «إن ترك خيرا الوصية»، وقد كان في أصحابه ذوو مال وفير فلم يأمرهم بتبديده، وقد أفاده ما لهم في مواطن كثيرة، فتولى عثمان مرة تجهيز جيش برمته من ماله الخاص، وأنفق عبد الرحمن بن عوف مالا عدا في سبيل تأييد الإسلام؛ ولولا هذه الأموال الطائلة لقصرت الكتب الإسلامية في القيام بمهامها في الدفاع عن حوزتها.

وقد عني الإسلام، في عهد حاجة جماعته للمال، بتدبير إنفاقه؛ فقد جاءه أحد

أصحابه يستأذنه في الخروج عن ماله في سبيل الله ، فقال له لا تفعل بل الثلث والثلث كثير ، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس . وقد جعل ذلك أصلاً في شريعته ، فقرر أنه لا يجوز لأحد أن يوصى في سبيل الله بأكثر من ثلث ماله .

وقد نهى عن تبذير المال وسوء استعماله ، وجعل للكرم حداً معقولاً فقال تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، وهذا تأنيب قارص يشعر بأن تبذير المال من الأمور الهامة في الإسلام .

لما نزل قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، ظن الناس أن كنز الأموال حرام في الإسلام ، فأفضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث بين فيه حد الكنز من هذه الآية ، فقال : « ما أدبت زكاته فليس بكنز ، فأصبح ادخار المال وحفظه ، مهما بلغ مقداره مباحاً للمسلمين ، والدليل الواقعي على ذلك أن كثيرين من الصحابة كانت لهم أموال طائلة ، وعاشوا النبي على هذه الحال ، وكانوا من خيرة صحابته .

ومن الأدلة العملية على ذلك : أن أبا ذر رضى الله عنه ، كان يرى أن ادخار المال غير جائز ، وأخذ يبت مذهب هذا في الناس ، وكان بالشام ، ووالها معاوية ابن أبي سفيان إذ ذاك ، فشكاه إلى عثمان رضى الله عنه ، فاستقدمه ونهاه عن ذلك ، فأصر على رأيه ، فنفاه إلى الرَبَذة ، وهي قرية بقرب المدينة ، فلبث بها إلى أن توفي .

هذه القصة تدل على حرص أولياء الأمر المسلمين من شيوع المذاهب المجتاحة للثروة العمومية للأمة الإسلامية . وفي نبي أبي ذر الغفاري ، وهو من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثال كبير الدلالة على هذا الحرص . وما ذلك إلا لأن المال أساس التعامل للجماعات ، وقوام المقاومة في تنازع البقاء . وقد حث الكتاب الكريم على البذل في سبيل الله ، وفي إمداد الفقراء بما يمكنهم من الحياة ، فإن لم يكن للأمة مال ، وكانت منه في إقلال ، فماذا تبذل

في سبيل الله ، وبأى شيء تمد المعوزين من أبنائها ، وتبهي لهم وسائل العمل والحياة ؟ هذه أمور بدئية ، لا تقاضانا التدليل على صحتها . لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بطلب السعة في الرزق من جميع مظاهرها ، في عبارات مؤثرة ؛ فقال : « لعثرة في كد حلال على عيّل محبوب ، أفضل عند الله من ضرب بسيف حولا كاملا ، لا يحف دما مع إمام عادل » .

وأمر بالجد في طلب الرزق وهدم التكاسل عنه ، فقال : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم » ، وحث على استثمار الأرض فقال : « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض » .

وحرص على التجارة فقال : « أوصيكم بالتجار خيرا فإنهم بُرد الآفاق ، وأمناء الله في الأرض » . هذا وكتب الحديث ملأى بأمثال هذه الكلم النوابع مما لم يرد مثله في كتاب ديني لامة من أمم العالم .

ومما هو غاية الغايات في هذا الباب ما رواه المحدثون من أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليه قوم فقالوا له : يا رسول الله لا يدانيك في العبادة إلا رجل عندنا يصوم النهار ويقوم الليل ، لا يشغله شيء غير العبادة . فقال لهم النبي : « فنيمونه ؟ » قالوا : يا رسول الله كلنا نيمونه ، فقال لهم النبي : « كلكم أفضل منه » ، فالذين يتخيلون أن الدين مقطعة عن الأعمال التي تعود بالنفع على الأفراد والجماعات ، إنما يجردون الدين من معناه الصحيح ، فإن الدين شرع ليصل بين الإنسان وبارئه ليستمد منه روحا علوية توجهه إلى ما خلق له من إنسانية كريمة وحياة شريفة ، ورفق معنوى يصل به إلى غاية ما قدر له في وجوده الدنيوى من سمو في الخلق ، وعلو في النفس ، وكرامة في الوجود ، وإبداع فيما وكل إليه من خلافته في الأرض ، لا أنه خلقه ليعيش معطلا مواهبه الأدبية ، مكتفيا بما حسنه له الوهم من إشار البطالة ، والرضا بالجهالة .

إن الإسلام دين المدنية الصحيحة ، والمعيشة الهنيئة ، في حدود الحكمة ، وحيز الفضيلة . فهو لا يحرم إلا ما يحرمه العلم الصحيح ، ولا يحل إلا ما يحله الطبع السليم ، فإذا كان يحرم على أهله الخمر والميسر والزنا والقتل والغيبة والنميمة والكذب والنفاق والسرقة والرشوة والخداع الخ الخ ، فذلك لأنها مفسدة

للأفراد والجماعات ، مجلبة للشرور والآفات ، وهو يحل كل ما عدا هذه الصفات الذميمة ؛ ولا يطالب الإنسان إلا بالاعتدال فيها ؛ لذلك تأدى المسلمون في أول عهدهم إلى بلوغ جميع أغراضهم الاجتماعية بأسرع مما سجله التاريخ لكل الأمم التي آلت إليها الخلافة في الأرض ، حتى من ناحية المدنية المادية ، فقد بلغوا فيها أوجاً أدهش مؤرخي الفرنجة ، ووصفوها بأنها لا تقل عن المدنية الحالية رونقاً . وإنا لناقلون لك ذلك عن العلماء الغربيين أنفسهم ؛ ليكون الوصف لغرابته أكثر إقناعاً للمشككين ، وأشد وقعاً على المنكرين .

قال العلامة (دريبر) Draper المدرس بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الأمريكية في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) قال في المقارنة بين مدينتي أوروبا في ذلك العهد ومدنية العرب :

« إن أوروبا في ذلك العهد (عهد مدينة العرب) كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة . وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ؛ فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم . وكانت البيوت في باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطه فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف البيوت ثم يتسرب من ثقب صنعه له في السقف . فكان الناس في هذه البيوت معرضين لكل ضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواماً وأكداً تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تام في حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال ، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

« وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمنخدة ، وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسماً .

« وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصاييح .

• هذه الجهالة كان أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام ، فانحصر
التداوى في زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحيال الدجالين .
وقد كان إذا دم البلاد وباء فزع رجال الدين للصلاة ، ولم يلتفتوا لأمر النظافة ،
فكانت تفتك بهم الأوباء فتكا ذريعاً ، انتهى كلام الأستاذ درير .

هذه كانت حالة أوروبا في أعظم مدنها حضارة على عهد البعثة المحمدية ،
آلت إليها بسبب ما أصابها من التدهور تحت سلطان رجال الدين فيها . ففارق
بين هذه الحالة ، وبين ما آلت إليه حالة مدن الأندلس (إسبانيا) التي استولى
عليها المسلمون في القرن الأول من الهجرة وسرّوا عليها النظم الإسلامية .
قال الأستاذ (درير) نفسه في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

• لم تكن أوروبا في مدنها العصرية بأعلى ذوقاً ، ولا أرفع مدنية ،
ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب ، فتمد كانت
شوارعهم مضامة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط ،
وكانت تدفأ شتاء بالمواد ، وتهوى صيفاً بالزيمات المعطرة ، بواسطة إمرار
الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرآ . وكانت لهم حمامات ومكتبات
ومحلات للغذاء ، ونبايغ مياه عذبة .

• وكانت المدن والخلوات مملأ بالاحتفالات التي كانوا يرقصون فيها على
آلات الطرب . وكانوا بدل النهم ، وإدمان السكر في المآدب الليلية ، كجيرانهم
الأوربيين ، يحملون مآدبهم بالقنساء . وكانت الخمر محرمة عليهم ، وكانت غاية
لذاتهم البدنية تنحصر في تمشيم في الليالي المقمرة في حدائقهم البالغة منتهى الجمال ،
أو يجلسهم حول أشجار البرتقال يسمعون قصة مسلية ، أو يتجادلون في
موضوع فلسفي ، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها ، بقولهم : إنها لو كانت
منزهة عن الآلام وعن الإصابات لنسوا حياتهم الآخروية . وكانوا يوفقون بين
جهودهم في هذه الحياة ، وبين آمالهم في النعيم المقيم في الآخرة .

انتهى مقاله الأستاذ (درير) . فقد رعد ذلك مبلغ ما أفاده الإسلام لذويه من
نعمتى الوجود المادية والأدبية ، وتحقيق بما يفيد هذا الدين لأهله من خير المعاش
والمعاد . أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : لنا الدين والدنيا معاً ؟
محمد فرير ومجدي

الحجاء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المفتش بالآزهر

أخرج البخاري عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم في
مسير له ، فحذا الحادي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : د ارفق يا أنجشة —
ويحك — بالقوارير ، !

مرزوقية كبرى في علوم الحديث

جرت عادة الإبل أنها إذا سمعت الحداء استهوتها أنغامه ، وهزتها ألحانه ،
وتأثرت به تأثراً تستخف معه الاحمال الثقيلة ، وتستقصر في سماعه المسافات
الطويلة ، وينبعث فيها من النشاط والقوة والشوق والحنين ما يسكرها ويولها ،
فترأها حتى ولو طالعت عليها البوادي ، واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل
والاحمال - تمد أعناقها ، وتنصب آذانها مصغية إلى صوت الحادي ، ومنصته إلى
نغمات الحداء ، وهي مسرعة في خطوها وجادة في سيرها ، وربما تلتف نفسها
من شدة السير وثقل الحمل ، وهي لا تشعر ، تأثراً بما ملاحا من طرب وهيام ؛
كما أنه قد ينشأ عن كثرة اهتزازها ، وتلاحق خطواتها ما يزعج الراكب ،
ويتعبه ، وما لا يؤمن معه على النساء والضعفاء من السقوط .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، ومعه نساؤه وسواق يسوق
بهن ويحدو ، يقال له : أنجشة ، وكان حسن الصوت ، فقال له عليه السلام : ارفق
يا أنجشة بالقوارير . وقد سمي النساء قوارير ، لضعف عزائمن ، تشبهاً لهن

بالقوارير من الزجاج في رقتها وضعفها وإسراع الانكسار إليها ، والنساء يُشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية ، وقيل : شبهن بالقوارير لسرعة انقلابهن عن الرضا ، وقلة دوامهن على الوفاء ؛ كالقوارير يسرع إليها المكسر ، ولا تقبل الجبر .

واختلاف في المراد من هذه التسمية على قولين : فأصحهما أن أنجشة كان حسن الصوت ، وكان يحدو بهن وينشد شيئا من القريض والرجز ، وما فيه تشبيب ، فلم يأمن أن يفتنه ، ويقع في قلوبهن حداؤه ، فأمره بالكف عن ذلك ؛ وهذا هو الأشبه بمقصوده صلى الله عليه وسلم ، وبمقتضى اللفظ ، وبما يدل عليه كلام أبي قلابة المذكور في رواية أخرى ، إذ يقول : تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة لو تكلم بها بعضكم لبعثوها عليه ، يريد قوله في تلك الرواية : سوقك بالقوارير .

والقول الثاني : أن المراد من تسمية النساء بالقوارير : الرفق في السير ؛ لأن الإبل إذا سمعت الحذاء ، اشتدت في المشي ، واستلذته ، فأزججت الراكب وأتعبته ، فهناك عن ذلك ، وطلب إليه أن يتلطف في سوقه بهن ، كتلطفه في السوق بالقوارير لو كانت محمولة على الإبل ؛ لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة ، ويخاف عليهن الضرر والسقوط ، ولأنه إذا تمهلت المطايا ، ومشيت رويدا ، أطمأن النساء في رحالهن ، وأمنن مما يصيبهن من أذى ومكروه . وقال أصحاب هذا القول : إن هذا من الاستعارة البديعة ، لأن القوارير أسرع شيء تكسيرا ، فأفادت الكناية بالقوارير عن النساء من الخس على الرفق بهن في السير ما لم تفده الحقيقة ، فيما لو قال : أرفق بالنساء . قال في السكواكب : هذه استعارة لطيفة بليغة ، فلم تعاب ؟ ثم قال : ولعل أبا قلابة نظر إلى أن شرط الاستعارة أن يكون وجه الشبه جليا بين الاقوام ، وليس بين القارورة والمرأة وجه شبه ظاهر عندهم . والحق أنه كلام في غاية الحسن ، والسلامة من العيوب ، ولا يلزم في الاستعارة أن يكون جملاء وجه الشبه من حيث ذاتهما ، بل يكفي الجملاء الحاصل من القرائن ، وهو هنا كذلك .

وقيل : إن أبا قلابة قال هذا لأهل العراق ، لما كان عندهم من التكلف ، ومعارضة الحق بالباطل . وقيل : إن قصده من كلامه أن هذه الاستعارة تحسن من مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغة ، ولو صدرت من غيره ممن لا بلاغة له ، لعجموها .

• • •

الحدا : سوق الإبل بضرب مخصوص من الغناء ، وهو من حدا الإبل ، وحدا بها : ساقها ، والحادي : المتغنى عند السوق . ويقال : إن أول من حدا الإبل عبد لمضر بن نزار بن معد بن عدنان ، كان في إبل لمضر ، فقصر ، فضر به مضر على يده فأوجعه ، فجعل يتألم ويقول : يا يداه ، يا يداه ! وكان حسن الصوت ، فأسرعت الإبل في السير لما سمعته ، فكان ذلك مبدأ الحدا .

وارفق : من الرقيق ، وهو اللطف وحسن الصنيع ، يقال : رفق به وعليه رفقاً ، وأرققه : رفق به ونفقه . وترفق به : رفق ، والرفيق : ضد الآخرق .

وأنجشة - بفتح الهمزة ، وسكون النون ، وفتح الجيم ، ووقع في بعض الروايات أنجش بالترخيم - هو غلام أسود للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حبشياً يكنى أبا مارية ، وذكره في الصحابة ، وذكر أبو عمر في الاستيعاب أنه كان يسوق أو يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم في عام حجة الوداع ، وكان حسن الصوت ، وكان إذا حدا أعنقت الإبل ، وأخرج الطبراني أنه كان ممن نفاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المخشيين .

ويحك : كلمة ترحم وتوجع ، وهو منصوب على المصدرية ، وقد ترفع وتضاف ، ولا تضاف ، يقال : ويح زيد ، ويحاله ، ويح له . وقال سيدي : ويل : كلمة تقال لمن وقع في هلكة ، ويح : زجر لمن أشرف على الوقوع في هلكة . وقال الفراء : ويل ويح وويس بمعنى ، وقيل : ويح : كلمة لمن وقع في هلكة لا يستحقها ، فيرثي له ، ويترحم عليه ، ويويل : ضده . وقال بعض أهل اللغة : لا يراد بهذه الألفاظ حقيقة الدعاء ، وإنما يراد بها المدح والتعجب

وجاء في القاموس أن ويح أصلها وى ، فوصلت بحاء مرة ، فقييل : ويح ، وبلاد مرة ، فقييل : ويل ، وبياء مرة ، فقييل : ويب ، وبسين مرة ، فقييل : ويس .
والقوادر : جمع قارورة ، وهى الزجاجية ، وسميت بذلك لاستقرار الشراب فيها .

نقل ابن عبد البر الاتفاق على إباحة الحدا ، وفي كلام بعض الحسابلة ما يشعر بوجود خلاف فيه ، والمماندون له محجوجون بالنصوص الكثيرة المفيدة لمده الصوت الحسن ، ومشروعية الحدا ، وذلك مثل قوله تعالى في معرض الامتنان على عباده : « يزيد في الخلق ما يشاء » ، فقييل إنه هو الصوت الحسن ، وقوله : « إن أنكر الأصوات لصوت الخير » ، فإنه يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ؛ ومثل خبر : « ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت » ، وخبر أبي موسى الأشعري في معرض المدح : « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود » ، ومثل حديث أنس : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر ، وأن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال » . وقال أهل العلم : لم يزل الحدا وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان الصحابة رضی الله عنهم ، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ ، مؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة .

وألحقوا بالحدا في الحكم غناء الحجيح ، وهو المشتغل على التشويق إلى حج بيت الله تعالى بذكر الكعبة والمقام والخطيم وزمزم وسائر المشاعر الكريمة ، والمشاهد العظيمة ، ووصف البادية وغيرها ، ووصف الثواب على ذلك ، والغناء الذى يحرض به أهل الجهاد على الغزو ، إذا كان الغرض منه تشجيع النفوس ، وتحريك النشاط على القتال ، والتمدح بالبسالة والنجدة ، وإثارة الهمة والحمة ، وغناء الأم لتسكين ولدها في المهد ، والغناء في أوقات السرور

إن كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء في أيام العيد وفي العرس ، وفي وقت قدوم الغائب ، وفي وقت الوليمة والمعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن العزيز .

واستدل بجواز الحمداء على جواز غناء الركبان المسمى النصب ، وهو ضرب من النشيد بصوت فيه تمطيط ، واستدل به قوم على جواز الغناء مطلقا بالألحان التي تشتمل عليه الموسيقى . وقال الماوردي : اختلف فيه ، فأباحه قوم مطلقاً ، وكرهه قوم مطلقاً ، وكرهه مالك والشافعي في أصح القولين . ونقل عن أبي حنيفة المنع ، وكذا أكثر الحنابلة . ونقل ابن طاهر في مكتاب السماع ، الجواز عن كثير من الصحابة . وقال ابن عبد البر : الغناء الممنوع ما فيه تمطيط ، وإفساد لوزن الشعر ، طلباً للطرب ، وخروجاً من مذاهب العرب ، وإنما وردت الرخصة في الضرب الأول دون ألحان العجم ، وهو الضرب الذي لم يزل يرخص فيه البعض من غير تكثير ، إلا في حالتين : أن يكثر منه جداً ، وأن يصحبه ما يمنع منه .

واحتج المبيحون له بأن فيه ترويحاً للنفس ، فإن فعله صاحبه ليقوى على الطاعة فهو مطيع ، وإن فعله ليقوى على المعصية فهو عاص ، وإلا فهو مثل التنزه في البستان ، والتفرج على المسارة .

وقال الغزالي : الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ، ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، فالوصف الأهم أنه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالاشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات ، وسائر الحيوانات : أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب ، فلا ينبغي أن يحرم ، بل هو حلال بالنص والقياس . ثم أخذ في بيان ذلك ، وبيان شروط الإباحة وظروفها ، وأوقاتها ودرجاتها وملابساتها ، وأطال بما لا يتسع المجال لذكره هنا ، فلي نظر هناك .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد المدني
المفتش بالأزهر

من المعروف أن القرآن الكريم لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، وإنما نزل منجماً في أكثر من عشرين عاماً في مكة والمدينة ، وقد عنى العلماء ببيان مكيه ومدنيه ، وكان مما ذكروه أن هناك سوراً نزلت في مكة ، وألحق بها بعض آيات نزلت بالمدينة ، وأن عكس هذا حاصل أيضاً ، فهناك سور نزلت في المدينة ، وألحق بها بعض آيات نزلت في مكة ؛ غير أن هذا العلم قد دخله كثير من الخلط والاضطراب ، فأدى ذلك إلى تقرير أمور لا يطمئن إليها القلب ولا يثق بها ضمير الباحث العلمي .

اعتمد أهل الشأن في ذلك على الروايات التي تروى ، وعلى الاجتهاد المستند إلى تلك الروايات أو إلى ما هو معروف مذكور في السير والمغازي ؛ والروايات تختلف ، فمنها القوي ومنها الضعيف ؛ وتعارض فرماً أثبت إحدى الروايات أن آية كذا مدنية ، وأثبتت أخرى أن هذه الآية بعينها مكية ؛ وقد وقع في بعض حوادث السيرة وأخبار المغازي شيء من الاضطراب تبعه اضطراب فيما يروى استناداً إليها ، أو أخذاً منها ؛ ثم الاجتهاد يختلف فترى فيه آراء مختلفة ، وترجيحات متعددة ، حتى أصبح هذا الأمر في كثير من المواطن أعقد من ذنب الضب .

والسبيل إلى تبين وجه الحق في ذلك هو التمهيص والموازنة بين الروايات قوة وضعفاً ، ومراجعة آراء المجتهدين المستنبطين حتى يتبين ما يقبل من ذلك وما لا يقبل . ولكن هذا أمر صعب دقيق ، والميل فيه إلى ناحية بعينها يستلزم علماً جماً ، وبحناً عميقاً ، ولونا من ألوان المثابرة العلمية في مدى طويل من الزمان والجهد ، وقد ازداد ذلك في زماننا صعوبة ، لانصراف الهمم إلى غيره ، أو لإكداؤها عنه .

وقد افتتحت اللجنة التي أشرفت على طبع المصحف الفؤادى المتداول الآن ميدانا ما كان لها أن تفتحه : ذلك أنها عثت بأن تنبه بين يدي كل سورة من سور القرآن المدنية أو المكية بذكر ما استثنى من الآيات ، فتراها مثلا تقول : « سورة كذا مكية إلا آيات كذا وكذا مدنية » ، ولا شك أن الحكم بذلك ليس قاطعا ، وإنما هو حكم فى أمر خلافى ، ولا ينبغي أن يوضع مثله هذا الوضع بين يدي السور ، فإن كثيراً من الناس يظن أن ذلك أمر مسلم ، وحكم متفق عليه ، مع أن اللجنة قد تختار مرجوحا ، وقد لا تنبه إلى ما فى بعض الروايات التي تعتمد عليها من مقال ، ونحن نورد هنا أمثلة بما جاء بين يدي السور الكريمة من ترجيعات هذه اللجنة ، ونناقشه مناقشة يسيرة :

١ — فمن ذلك أنها كتبت عن سورة يونس أنها مكية إلا آيات استثنتها ، ومن هذه الآيات آية ٩٦ ، وهى قوله تعالى : « إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، فهذه الآية مدنية فى الرواية التي اعتمدت عليها اللجنة ، مع أن بعدها مباشرة آية متصلة بمعناها اتصالا يقضى بأنها نزلت معها بعدها لا قبلها ، هى قوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم » ، فظاهر أن قوله « ولو جاءتهم » مبالغة على قوله « لا يؤمنون » ، فكيف يتصور أن كل واحد منها نزل فى وقت ، ثم نتصور أن المبالغة نزلت قبل الاصل المبالغ عليه ؟

٢ — ومن ذلك أنها كتبت عن سورة مريم أنها مكية إلا آيتي ٥٨ ، ٧١ مدنية ، وهاتان الآيتان هما :

أولا : قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبرهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبینا إذا تنلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » ،

هذه آية ٥٨ وهى تبدأ باسم الإشارة « أولئك » ، وقد سبق ذلك حديث السورة منذ أولها عن الانبياء والصديقين ، فقد ذكرت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبرهيم وإسحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس ، فن الواضح

أن الإشارة لهؤلاء ، فإذا قيل إن الله ذكرهم في مكة ، ثم أشار إليهم بهذه الإشارة في المدينة كان ذلك موضع نظر .

ثانياً : قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » هذه هي الآية الواحدة والسبعون المستثناة أي أنها مدنية مع أن بعدها قوله تعالى « ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » والمعنى يقتضى أن يكون ترتيب نزولهما حسب ترتيب ورودهما في المصحف : لأن الآية الثانية استثناء من حكم الآية الأولى ، فلا يستلزم القول بأن الاستثناء وقع في وقت ، والمستثنى منه وقع في وقت ، ولا سيما إذا كان المتأخر هو المستثنى منه .

٣ — ومن ذلك أنها كتبت عن سورة الفرقان أنها مكية إلا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ وهذه الآيات قد جاءت بين عدة آيات في آخر السورة وصف بها عباد الرحمن ، وذلك قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً (٦٥) إنها سمات مستقرا ومقاماً (٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً (٧٠) ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً (٧١) والذين لا يشهدون الزور ... الخ

فانظر كيف تحكم هذه الرواية على بعض الأوصاف التي جاءت في نسق واحد بحكم يقتضى أن الله جل جلاله قد بدا له زيادة في أوصاف عباد الرحمن التي قررهما في مكة بصورة خبرية ، فاستدركها في المدينة فأضاف إليها هذه الآيات الثلاث — تعالى الله !

٤ — ومن ذلك ما جاء عن سورة الروم من أنها مكية إلا آية ١٧ فمدنية .

وآية ١٧ هي قوله تعالى « فسبحان الله حين تمشون وحين تصبحون » وقد

جاء بعدها ، وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون ، فهي أختها وقريبتها في المعنى تكمل إحداها الأخرى ، ولا ندرى ما الحكمة التي قضت بفصل هذه عن تلك في النزول كما يقولون .

٥ — ومن ذلك استثناء الآية ٥٤ من سورة الزخرف المسكية ، وهي قوله تعالى : فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ،

وقد جاء ذلك في أثناء قصة موسى وفرعون إذ يقول الله عز وجل : : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ، إلى أن يقول : ونادى فرعون في قومه ، قال : يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولاً ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٣) فاستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين (٥٤) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين (٥٦) ،

• فتريدنا هذه الرواية على أن تأخذ الآية الرابعة والخمسين بخصوصها دون ما قبلها وما بعدها في هذه القصة الواحدة فنعدها من المدنى .

٦ — وشبهه بذلك ما كتبوه عن سورة يوسف ، فهي مكية كلها إلا الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٧ ، فمدنية .

ومعنى ذلك أن الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ مكية وهي قوله تعالى : : إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ، إلى قوله : : كما أنهما على أبويك من قبل إبراهيم وإسمحق إن ربك عليم حكيم ، وإن قوله بعد ذلك مباشرة : : لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ، مدنى ، وقد جاءه بعده مباشرة أيضا آيات مكية أخرى هي : : إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إلى آخر السورة ، والضمير في قالوا ، الإخوة . فالنظر كيف يحملوننا على أن نفهم أن ضميرا في آية مكية يعود على مذكور في آية مدنية وكيف اقتطعوا جملة من قصة لها تمام الاتصال بها في المعنى ، ففرقوا بينهما في الوطن إلى هذا الحد .

يجب أن تجرد المصاحف من أمثال هذه الروايات ، فلا يوضع بجانب المتواتر المحفوظ الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كلام غير محدد .
وروايات كثيرا ما تضطرب معانيها ، وهى كما يقول الشاعر :
بلى شئ يوافق بعض شئ وأحيانا وباطله كثير !
فلندع كتاب الله مصونا فى المصحف ، ولزرو ما نشاء من الأقوال والآراء بعيدا عنه ، حيث يكون خاضعا للبحث والتحصيل .

إن الحكومة المصرية هى التى ألقت هذه اللجنة ، وقد اعتمدت عملها بعد أن وافقت عليه مشيخة الأزهر ، واشتهر المصحف منذ ذلك الوقت بنسبته إلى المغفور له الملك فؤاد الأول طيب الله ثراه ، فأول ما نخشاه أن يظن ظان أن هذه الأحكام المسجلة بين يدي كل سورة أحكام نهائية قد فرغ البحث منها ، وسلم العلماء بصحتها ، حتى اعتمدتها الدولة وصبغت عليها ثوب الرسمية ، وفى هذا من التضليل والضلال ما فيه .

الاستدلال بالضمير

كتب حكيم إلى حكيم : إذا أردت معرفة مالك عندى ، فضع يدك على صدرك ، فكما تجدنى كذلك أجذك .

وقال غيره : إياكم ومن تبغضه قلوبكم ، فإن القلوب تجازى القلوب .

وقال ذو الإصبع :

لا أسأل الناس عما فى ضمائرهم ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

وقال محمود الوراق :

لا تسألن المرء عما عنده واستمل ما فى قلبه من قلبك

نقول هذا قد يصح إذا كان القلب سليما من همزات الشياطين ، صافيا نقيا تنطبع فيه الأمور المعنوية كما تنطبع الصور فى المرآة . وأين مثل هذه القلوب إلا للأنبياء والصديقين والحكماء ، أما العامة ومن فى حكمهم فقلوبهم مغشاة بالآهواء ، صدئة بالظنون والاهام ، فلا يجوز أن يوثق بما تصوره لأصحابها ، ومن يفعل ضلته ولا كرامته .

الإصلاح الاجتماعي

بين النزعتين : المادية والروحية

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام

الأستاذ بكلية اللغة العربية

للمصلحين الاجتماعيين — على اختلاف نزعاتهم — غاية واحدة : هي النهوض بالمجتمع البشري ، والوصول به إلى أقصى درجات الكمال الإنساني ؛ غير أنهم سلكوا في سيرهم طريقتين مختلفتين ، فانقسموا إلى فريقين : فريق يسعى للإصلاح من ناحية الروح ، وفريق يسعى إليه من ناحية المادة .

فالروحانيون يرون أن الروح هو الجزء الأهم في الإنسان ، فهو الأجدر بالعناية والرعاية والخدمة ؛ لذلك كان الدين عندهم هو الوسيلة إلى إصلاح البشرية ، ثقةً منهم بأن الإنسان لا يطمئن في الحياة ، ولا يتغلب على صعابها ، إلا إذا امتلأ قلبه إيماناً ، وعمرت نفسه بالدين الذي يرافقه في خلوته ، فيزجره ويعصمه من الشر والإجرام ، من غير قانون يخشاه ، ويمزيه في حرمانه ، فيجعله راضياً ؛ وبذلك تحقق له السعادة التي تعجز عن تحصيلها الأموال الطائلة ، والقوى الهائلة ؛ بل العلوم والمعارف .

يرى الروحانيون أن الإصلاح الاجتماعي إنما يكون عن طريق تهذيب النفوس ، وتطهير القلوب من الاحتماد والاضغان ، ومن الأنانية والعدوان ، وبفارس المحبة والميل إلى الخير في النفوس ، وتوجيهها إلى الله تعالى ، الذي يحفظ المؤمن من كل ما يخشى ، ويحقق له كل ما يطلب .

هذا ما قام به الروحانيون في خدمة البشرية ، ولهم فضلهم ، والإنسانية مدينة لهم بما صنعوا ؛ فقد عملوا لتهذيب النفوس ، وتطهير القلوب ، وإضاءة العقول ،

وإيقاظ الضمير الإنساني ، الذي يقود إلى الخير ، ويصد عن الشر ؛ وهذا حسن من رجال الدين ، يذكر لهم دائماً مقرونا بالإعجاب والتقدير .

غير أن فريقاً من الروحيين قد غلا في دعوته ، واندفع في طريقه حتى جاوز الغاية ، فخر من شأن المادة ، ودعا الناس إلى الانصراف عنها ، والعزوف عن الدنيا ، والزهد فيها ، وصرف الوقت كلها : ليله ونهاره ، في تغذية روحه بالعبادة ؛ فانصرف الناس بذلك عن العمل في الدنيا .

ومنهم من عبث بالعقول ؛ فعاقها عن التفكير ، ودعا إلى التقليد المطلق ، وقاد الأفكار إلى اعتقاد الخرافات والضلال ، وهؤلاء قد أساءوا إلى البشرية بما ألحقوا بها من بالغ الضرر ، وإلى الدين بما أحدثوا فيه من تحريف وتشويه .

لقد كان ذلك سبباً في ثورة بعض المفكرين على الدين ، ومناهضة الروحيين ، وانتشار النزعة المادية ، وإعلان أهلها العصيان والتمرد على الأديان ، فاتهموا الشرائع السماوية بأنها غل في عنق الإنسان ، وقيد يعوقه عن السير إلى الأمام .

وصفوا الدين بأنه مخدر ، ورموا أهله بالجمود ، والاستسلام إلى الخيال والأوهام ، واتهموا زعماءه وقادته بأنهم يدعون الناس إلى السكسل والخمول والتواكل ، ويقتلون فيهم روح العمل ، ويفرسون فيهم الأثرة وحب الذات ؛ لأنهم يحملونهم على طلب السعادة لأنفسهم بالعبادات ، ناسين أن عليهم حقاً للعالم الذي يعيشون فيه ، ويتمتعون فيه بكل خير ، ولا يقدمون له من الخدمة شيئاً ما ؛ وتلك هي الانانية بعينها .

ومن ثم تنكسر الماديون للأديان ، وطاردوا رجالها ، وأغلقتوا المعابد ، وفصل بعضهم الدين عن الدولة ، وأغمضوا أعينهم عن الروحانيات .

وهؤلاء هم الماديون ، أصحاب المذهب الثاني ، الذي يعالج المجتمع عن طريق المادة ؛ اعتمدوا في معالجة المشاكل الاجتماعية على وسائل مادية بحتة ، فعملوا على توفير الثروة في البلاد ، وزيادة الغلة والإنتاج الزراعي والصناعي ، وتنظيم توزيعها ، وسن القوانين التي تؤدي إلى ازدهار العمران ، وإيجاد نوع من العدالة

يضمن للعامل والصانع عيشة طيبة ؛ وفي مقدمة ما يهتمون به إنشاء الملاجىء ، والمدارس والمصحات .

أسلموا للعلم قيادهم ، وجعلوه أداة استنبطوا بها مكنونات المادة من أسرار وقوى ، استخدموها لخير الإنسانية ؛ هدفهم إسعاد الإنسانية عن طريق الغنى والمعرفة والقوة . وهم بذلك يعملون للقضاء على الأعداء الثلاثة : الفقر ، والجمل ، والمرض .

ظن هؤلاء الماديون أنهم بخدمة الجانب المادى للإنسان ، يحققون للمجتمع مثله الأعلى : السعادة المنشودة ؛ وما دروا أن العلم والمال وحدهما لا يغنيان الإنسان ، ولا يحققان له شيئاً من هناءة الروح ، واطمئنان النفس ؛ بل كثيراً ما يسببان للإنسان الشقاء بما يجلبان عليه من مهلكات التفرق المفضى إلى الحروب المدمرة التى تقضى عليه وعلى عله وماله .

وحسبنا دليلاً على ذلك ما حدث في هذا القرن من وقوع حربين عظيمتين ، كان العلم والمال أمضى أسلحتهما .

وضع لنا مما يذاه أن كل واحد من المذهبين لا يستقل على انفراد بإصلاح المجتمع ؛ لهذا يمكننا أن نطرح جانباً النزعة المادية المتطرفة ، كما نطرح النزعة الروحية المتطرفة . وهنا نقف بالإصلاح الاجتماعى موقفاً وسطاً ، فلا نميل به مع الغلاة من الفريقين ؛ بل الخير كل الخير فى الأخذ بالمادة إلى قدر مقدور ، والاسمساك بعرى الدين فى حدود تعاليمه الصحيحة .

نستطيع إذن أن نوافق الماديين إلى حد ما : نقرهم على ضرورة استخدام العلوم والانتفاع بشمارها من المخترعات التى تقوم فى المصانع مقام اليد العاملة ، فتزيد الإنتاج الصناعى والزراعى ، وتحمل عن الإنسان ما يتكبد من عناء ؛ ونوافقهم أيضاً على إقامة المؤسسات اللازمة لإصلاح المجتمع من المدارس ، والمصانع ، والملاجىء والمسكن الصحية ، وإنشاء القرى على نظام جديد ، وتعميم نظام التعاون فيها .

نستطيع أن نوافقهم على هذا كله ، ولكننا نشكر عليهم شططهم إلى حد الخروج

على الدين ، والثورة على القوانين السماوية التي ثبتت صلاحيتها لكل زمان ومكان كنظام الميراث ، ونظام الأسرة ، واحترام الملكية .

أما استخدام العلوم والاتفاع بشمارها ، فهو أمر نقره أيضا ، إذ لا يصادم العلم الصحيح الدين أبدا ، بل الدين يحث عليه ، ويرفع من شأنه ، ولا يقف حجر عثرة في سبيله .

ومن الأصول العامة التي جرى عليها العمل بين المسلمين ، أنه إذا أومر ظاهر النص معارضته للعقل ، أو لأصل من أصول العلم ، وجب تأويله بما يجمع بينهما . ومثال ذلك ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، وقوله تعالى : « والارض بعد ذلك دحاها » ، أي بسطها .

لا يعقل أن يكون لله وجه أو يد ، وقد أثبت العلم أن الارض كروية . فعمد المسلمون — اتباعا للأصل المقرر في دينهم — إلى تأويل هذه الالفاظ : أولوا الوجه بالذات ، واليد بالقدرة . وقالوا : إن المراد بالدحو البسط فيما يراه الرأي لا في الشكل الكلي ، فلا يتنافى هذا أن الارض كروية .

والاستمسك بعمرى الدين في حدود تعاليمه الدينية يحملنا على النهوض بالإصلاحات الاجتماعية ، والقيام بالمشروعات العمرانية ؛ لأن الدين الإسلامى يعمل على إصلاح شئون الناس في دينهم ودنياهم على السواء ، قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وفي الآثار الصحيحة : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

يحث الإسلام على العمل ، ويحارب البطالة والكسل ، ويرغب في مزاوله الصناعات والتجارة . روى عن المقداد رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، قال تعالى : « وعلناه صنعة لبوس لكم » . وقال : صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وفي الآثار الصحيحة أيضا : « إن الله يحب

التاجر الصدوق ، والصانع الناصح ، ونظر عمر إلى أبي رافع ، وهو يقرأ ويصوغ ، فقال : يا أبا رافع ! أنت خير مني : تؤدي حق الله وحق مواليك ، . قال الله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، وقال تعالى : فامشوا في مناكبها ، وكلاوا من رزقه ، .

ليس الدين الإسلامي ديناً روحياً فحسب ، بل هو دين جسد وعمل كذلك ؛ يدل لهذا أن الشريعة الإسلامية نظمت للناس شئون حياتهم الاجتماعية بما سنت لهم من الأحكام والقوانين الاقتصادية والزراعية والتجارية ، وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها .

فهناك قوانين لتنظيم البيع والشراء ، والإجارة والسائم ، والقرض والقراض ، والمزارعة والشركة ، والزواج والطلاق ، والعدة والنفقات وغيرها .

لقد رسم الإسلام سياسة المجتمع البشري ، على أحكم خطة وأحسن تقويم . جاءت الشريعة الإسلامية بمبادئ وأحكام ترمي إلى تدعيم بناء المجتمع ورقابته ، وإلى علاج ما يفتابه من أمراض وعال ؛ مبادئ لو استمسك بها الناس لعاشوا في أمن ودعة ، ولظلموا في رغبة من العيش ، وبسطة من الهناءة والنعيم ، والغبطة والسعادة .

أمر الدين الإسلامي بعموم الفضائل ، ونهى عن جميع الرذائل . ودعا إلى التآخي والتواصل ، وحذر من التدابر والتقاطع ، وقرر حفظ النفس ، والدين ، والمال والعقل والنسب ، أمور خمسة قرر الدين الإسلامي حفظها والذود عنها ؛ إبقاء على كيان المجتمع ؛ لأن في بقائها بقاءه ، وفي إهمالها انحلاله وفناءه .

وقد سمي الأصوليون هذه الأشياء الخمسة بالسكليات الخمس ؛ لأن كل الأديان السماوية اتفقت على أن نحافظ عليها . وفي سبيل المحافظة على هذه الأمور شرع الإسلام القصاص لحفظ النفس ، والجهاد لحفظ الدين ، والحدود المختلفة لحفظ المال والعقل والنسب .

الدين والأخلاق

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدي إليه ، ويُعنى ببيان الشر وتبغيضه إلينا .
والأخلاق كما نقول المعاجم ، والكتب العلمية التي تبحث في هذا الفرع من فروع
الفلسفة ، هي مجموعة القواعد التي بها نعمل الخير ، ونتجنب الشر . أو مجموعة قواعد
السيرة الطيبة المعمودة ، القواعد التي يقبلها الناس عامة في كل عصر وزمان .

فإذا كان الأمر كذلك ، كان من الطبيعي أن تكون صلة قوية بين الدين
والأخلاق ، بل كان من الطبيعي أن تكون الأخلاق تابعة للدين . وهذا حقاً ،
ما يعرفه تاريخ الفكر في القديم والحديث .

نرى هذه الصلة الوثيقة فيما نعرف من تفكير قدماء المصريين والهنود
والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين أتباع الديانات الوحيية : اليهودية والمسيحية
والإسلام . ذلك بأن العناية من الدين ، وبخاصة ما كان سماوياً منه ، لإصلاح
الإنسان والإنسانية ؛ وليست الأخلاق إلا هذا .

كان المصريون القدماء كما نعرف ، يدينون بحياة أخرى ، يسأل فيها المرم
عما عمل في حياته الأولى ، فكان من هذا : حرصهم على أن يكونوا أخياراً ،
وفي كتاب ، الموتى ، على ذلك شاهد وشاهد .

ولدى الهنود ، نرى أن عقيدتهم في خلود الروح والتناسخ ، ووحدة الوجود ،
قد استتبعت أخلاقاً تقوم على الإعراض عن الدنيا وطبياتها ، وعلى رياضة النفس
بالزهد والتأمل في عزلة وسكون ، كما تقوم أيضاً على حب الناس والكائنات جميعاً .

وفي فارس موطن دين « زرادشت » الذي يقوم على الاعتقاد بالتهين :
إله للخير ، وإله للشر ، نجد مذهباً في الأخلاق أساسه ، أن في الإنسان صراعاً

دائماً بين مبدئين : مبدأ النور والخير ، ومبدأ الظلام والشر . ومن ذلك أن على الإنسان أن يعمل على نصرته مبدأ الخير ، وذلك باتباعه سبيل الفضيلة ، حتى ينتصر الخير في يوم آت لا ريب فيه .

هذا في الديانات الوضعية الفلسفية ، والامر في الديانات السماوية أوضح من أن نحتاج للحديث فيه . في كتب هذه الديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام ، نرى صلة الأخلاق وثيقة جداً بالدين ، بل نجد الأخلاق جزءاً من الدين ، وليس في هذا شيء من العجيب .

إن الله العالم الحكيم هو الذي أرسل رسل هذه الأديان كلها مبشرين ومنذرين ، هادين بوحيه إلى الصراط المستقيم ، مرشدين الناس إلى سعادة الآخرة والأولى . وهذه السعادة تكون بالعقيدة الحققة الصالحة ، كما تكون بالأخلاق الطيبة المحمودة ، وبهذا كله نزل الوحي وجاء الشرع . وإن كان الباحث يجد في غير عناء المثل العليا للسيرة والسلوك تختلف فيما بينها في هذا الدين عن ذاك ، باختلاف عصور الوحي والرسالات .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن أخلاق هذه الديانات تقوم على الترغيب والترهيب ، على الترغيب في الخير بما وعدت من الثواب عليه ، وعلى الترهيب من الشر بما رتبت عليه من عقاب . ولم تر أن تدعو للخير ببيان ما فيه من حسن وجمال ولياقة بكرامة الإنسان والإنسانية ، ولا أن تبغض في الشر ببيان ما هو عليه من قبح في نفسه وتناف لكرامة الإنسان كإنسان .

كما من الضروري أيضاً الإشارة إلى ما لوحظ من أن كثيراً من الملحدن ، الذين لا يؤمنون بالله خالق ولا بحياة أخرى يكون فيها الجزاء على أخلاق فاضلة ، وخلال محمودة من الناحية الاجتماعية . بينما كثير من المؤمنين بهؤلاء الدين السماوي أو ذلك ، لا يعرفون من الخير إلا اسمه ، ولا تتفق أعمالهم مع أقوالهم وعقيدتهم الدينية .

ولعل هذه الملاحظة وتلك ، هو ما دعا بعض الفلاسفة والمفكرين المحدثين إلى محاولة فصل الأخلاق عن الدين ؛ وذلك بتعليل أحكامها عقلياً ، والبحث عن أسباب أو مبادئ أخرى تدفع للخير وتحجب فيه وتبعد عن الشر

وتجمله بغيضاً ، دون حاجة للُجوء للدين وما يرتبه من جزاء على الخير والشر ، وبذلك يؤمن بالاخلاق المتدين والملمد على السواء .

وإن أصحاب هذا الرأي ، أو إن رجال هذه المدرسة وعلى رأسهم د. إميل دوركايم ، الفيلسوف الفرنسي المعروف ، يقولون بأن من الممكن فصل الاخلاق عن الدين ، وجعلها عقلية في مبادئها ووسائلها ؛ كما يرون بأن هذا من الخير ، إذ يعين على الوصول للغرض الذى تهدف إليه الاخلاق .

إنهم يرون بأن كون هذا العمل خيراً والآخر شراً ليس إلا حقائق لها وجود ، وكل ما كان كذلك يجب أن يكون من الممكن تفسيره بالعقل وحده دون حاجة للُجوء للدين أو فلسفة ما بعد الطبيعة . ولم تعد قدرة العقل على تفسير كل حقيقة من هذا الضرب أو غيره موضع شك أو عجب ، بعد ما رأينا من تقدم علوم الطبيعة والحياة والنفس ، هذا التقدم الذى فهم به الإنسان الكون ، ودانت له عناصر الوجود أو كادت !

فإذا كان الأمر هكذا فى غير الاخلاق ، فلماذا لا يكون كذلك فى الاخلاق ! ولم نحتاج - فى رأى دوركايم - فى سبيل تثبيت الاخلاق فى العقول والطباع ، أن نلجأ إلى طرق يعز على العقل إدراكها ، أن نلجأ إلى الدين أو ما بعد الطبيعة !

على أنه لا يصح فى سبيل جعل الاخلاق عقلية أن نحذف منها كل ما جاء عن الدين ، وإلا صارت أخلاقاً هزيلة ليس لها من أساس . إن الواجب أن نبحث المبادئ الاخلاقية التى جاءت عن السماء ، وأن نحدد بعين هذا طبيعتها الخاصة ، وأن نعبر عن هذه المبادئ بلغة علمية عقلية .

ثم للأخلاق طابع قدسى خاص ، طابع إلزامى لا يمكن عدم الاعتراف به أو الخروج عنه ، حتى إنه قد يُقبل أن يلحد المرء فى دائرة العلم فلا يؤمن ببعض حقائقه ، ولكن لا يُقبل بحال أن يلحد فى الاخلاق . وهذا الطابع هو ما يجعل للأخلاق قوتها وأثرها الكبير على المعلم والمتعلم معا .

هذا الطابع يجب إذا الاحتفاظ به ، — ولكن فيما يقول دوركايم — ليس من الضروري رده للدين أو لمبادئه عما فوق الطبيعة ، بل من الممكن تفسيره عقليا في سهولة ويسر . وقد يمكن هذا التفسير بإسناده إلى ما يجب الإنسان والجماعة من كرامة وتقديس ، وذلك يجعل ما يتصل بهما من الناحية العملية مقدسا كذلك . ونتيجة ذلك كله ، أن يكون في الإمكان أن نغرس في الطباع حب الخير لأنه جميل في نفسه ، وكراهة الشر لأنه قبيح بغض في نفسه ، دون ضرورة للجوء للترغيب والترهيب . ومن مثل هذا المبدأ العام أن يفهم الإنسان أن من حقه وكرامته على نفسه أن يحترم ما فيه من إنسانية فلا يكذب ولا يكون جباناً مثلاً ، وأن يفهم كذلك أن من واجبه لغيره أن يحترم ما فيه من إنسانية فلا يغشه أو يخدعه ، وهكذا يمكن بهذا المبدأ أو ذاك غرس الخير وحب الفضيلة في الطباع بعد أن يقتنع العقل تماما أن ذلك جميل وحسن ومحجوب لذاته .



وأخيرا ، فإن فصل الأخلاق عن الدين لتكون علما عقليا ، أى اللجوء إلى العقل للتجيب في الخير والتفكير من الشر ، قد يكون له تأثيره الكبير على غير المؤمن بالدين ، الدين الذي يلجأ في التجيب إلى الفضيلة والتفكير من الرذيلة إلى الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب .

إلا أنه قد يلاحظ مع هذا أيضا أن ربط الأخلاق بالدين لا يمنع الباحثين من جعلها علما عقليا ، وذلك بتفسير الاصول التي تستند إليها والمبادئ التي تقول بها تفسيراً عقليا ، كما هو الشأن في كل ما جاء به الدين من أحكام وتشريع . إن القرآن كان حكماً كل الحكمة بما أكد من ثواب وعقاب على عمل الخير والشر . ذلك ضروري أول الأمر حتى يعتاد المرء عمل الخير وحتى يذوق حلاوته ؛ وحينئذ ليحله لنفسه ، وينتهي عن الشر لنفسه ، لا للثواب ولا للعقاب .

ثم حتى هذه الأيام ، لم يصل الفلاسفة والمفكرون في هذه الناحية ، مع الرغبة وطول البحث ، إلى شيء آخر غير الدين يمكن أن تستند إليه الأخلاق ، ويكون له طابع القدسية والإلزام الذي نجده للدين ؛ هذا الطابع الذي هو جد ضروري للأخلاق ، حتى في رأى هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين العقلانيين .

العبرة في ذكريات العظماء

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« العلم علان : علم في القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة
الله على ابن آدم » .

تمر بالناس الذكريات في جلالها وعظمتها ، فترتلها السنة الدهر ، وتسطرها
أقلام الخلود ، وتشيد بها العوالم والمعالم ، قوة لا تضعف ، وعزيمة لا تفتر ،
وسراجا لا يخبو ، ونبما لا يغيض ، فما يزال هذا الزمان يردددها ويمجدها حتى
يقف دولابه في هذه الحياة الدنيا ، ثم يتحرك في دورة أخرى ، ولون جديد
بعد هذه الحياة يوم يقوم الناس لرب العالمين . . .

فهل يفيد الناس من هذه الذكريات . ما يتركز في القلب عبرة ، وما يتمثل
في الحياة عظة ، تسمو بالنفس إلى ذروة المجد ، وتسبح بها في آفاق العظمة بين
جلال وجمال .

• • •

ذكريات العظماء أعلام خفاقة ، تلوح للرائين إن استبصروا واستذكروا ،
وشدوا على قلوبكم برباط المعرفة ، واستلهموا وحيها الناطق بالحق ، والصادق
في الفضل ، والمعلم للكرامات ، فتكون عبرتكم ، وتكون أسوتكم ، ويطيب منكم
ما تسرون وما تعلنون .

ذكريات العظماء روحيات تفوح بنشرها وتزهو بشمرها ، ويستمتع بأفنانها
النضرة نفوس المستروحين ، وقلوب المتعشقين .

طاقت بنا فيما طاقت من الذكريات الكريمة العظيمة ، ذكرى سيد الكائنات المصطفى المختار ، المصطفى من كدورة الشوائب ، في شبابه وفتوته ، في السن التي تكدرها نزوات الهوى الجاسع ، وتمكرها نزعات الفتنة العابثة العاتية ، فهل استخلص الشباب من هذا الطهر المذاب في قلب محمد بن عبد الله لونا من عظمة الشباب حين يسمو بنفسه عن النزق ، ويأبى بعزمه أن يخضعه اللهو ، ويشمخ بأنفه أن يسوقه السفهاء الى مساقاة ملاذهم وشهواتهم ، ثم تظالعنا في ذكرى شمائله صلى الله عليه وسلم أمانته ووفائه وصدقه ، حتى ليلقب بين أهل مكة بالصادق الأمين ، وحتى لتطلب إليه شريكته في التجارة ، السيدة خديجة بنت خويلد أن يكون شريكها في الحياة ، لتتخذ زوجا مثاليا ، تذوق من نبله وبره جميل الاخلاق ، وكريم الصفات .

فهل يتعفف التجار في هذا الزمان ، عن الكذب ، والخيانة ، والجشع ؛ ليتذوق الناس منهم حلال الكسب ، وعدالة الربح ، والقناعة بالقليل .

وتظالعنا في سيرته العاطرة صلى الله عليه وسلم شجاعته ، وثقته وقوة عزمته ، فلقد خرج من بيته ليلة اعتزاه الهجرة من مكة الى المدينة ، وحول البيت سيوف مسلولة ، وسواعد مفتولة ، وعصبة تملكهم الحمية الجاهلية ، يريدون أن يفتكوا به ، ويضربوه ضربة رجل واحد ، فلا والله ما جبن ولا تخور ، ولا ضعف ، ولا ضعفت ثقته بربه ، بل خرج على القوم ، واليقين كفاء عزمته ، وقوة الثقة تملأ جنبيه ، وتركهم في سخرية الساخرين ، وهزم المستهزئين ...

فهل يستيقظ جنباء العزائم ، وضعفاء الهمم ، والفاقدون الثقة بالله ، فيسترجعوا عزائمهم ويملاؤوا قلوبهم إيمانا وأمنا ؛ ليجعلهم الله من حزبه ، وأن حزب الله هم الغالبون .

فأما ما يملأ فم الزمان من التحدث بجوده وبذله صلى الله عليه وسلم ، وحده على الفقراء والمساكين ؛ فذلك ما لا يحمله أحد من الأولين والآخرين ، فلقد كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ويذل عما يملك حتى لا يدع لنفسه كثيراً ولا قليلاً ، ولقد طابق خبره خبره ، وهو الذي يقول : « السخي قريب من الله عز وجل ،

قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد عن الله عز وجل ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة ، قريب من النار ،

ولقد أهديت إليه صلى الله عليه وسلم شاة مذبوحة فقال لعائشة : « أطمعينا منها وأعطي الفقراء » . ثم خرج لبعض شأنه ، فلما عاد قال : يا عائشة هل بقي من الشاة شيء ؟ قالت رضى الله عنها : ما بقي إلا كتفها . فقال عليه الصلاة والسلام : « كلما بقي إلا كتفها ، يريد عليه الصلاة والسلام أن الذى أخذه الفقراء هو المدخر عند الله وإن الجزء الذى بقي منها ليا كله لا يعد فى الباقيات . وصدق الله العظيم « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

فهل يعتبر أصحاب الاموال فينا . فيقدمون بما ملكت أيديهم ، لغوثة الملهوف وفرجة المكروب ، ورحمة البائس المسكين .

هل يعلمون أن ما يملكون إنما هو ملك الله وأنهم ليسوا إلا خلفاء فيه . قال تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، وأنهم هم الرابحون بما بذلوا وما عطفوا ، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

وما أجمل قول الشاعر فى هذا المعنى :

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته فلا متانى بذلى ولا مسعدى بخلى
أرونى بخيلا طال عمراً يبخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

أما بعد :

فإن العبرة فى هذه الذكريات الكريمت والسخة ماثلة ، ولا نريد أن تمر بالناس هذه الذكريات ، كلاماً يردد ، أو مظاهر تتعدد . . بل نريدها ذكريات تركز فى القلوب معانيها ، وتستقر فى النفوس والمشاعر مراميها ، فتنبى انطبع بها الوجدان ، وتحركت منها الحواس ، كانت الذكرى بالغة ، وكان الاثر بها قوياً ، صادقاً كريماً . أفن يمشى مكباً على وجهه أهدى ، أم من يمشى سويّاً على صراط مستقيم .

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

بين الأدب والفلسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الأستاذ بكلية أصول الدين

فضيلة العدالة :

العدالة بمعناها العام ، كالعدل والاعتدال ، كلمة معناها : الاستقامة والاستواء والنسوى ، والعدل والتعديل : التسوية والتقديم .

وإلى هذا المعنى ترجع كلمة (العدالة) التي يراد بها تلك المأسكة النفسية المحدودة عند الأخلاقيين من أمهات الفضائل الإنسانية . والتناسب بين هذا المعنى الخاص المتعارف عند الأخلاقيين ، وبين المعنى اللغوي السابق واضح بين ؛ لأن الاعتدال النفسى الذى سماه الأخلاقيون عدالة - وعدلا هو أيضا صورة من الاستقامة والاستواء والنسوى . وحسبنا أن نوضح هذا بمظهر القاضى المتصف بالعدالة ؛ إذ نرى مجلسه صورة من التعادل والانسجام يسوى فيه بين الخصمين فى النظرة والإشارة وشئى ضروب المعاملة ، لا يتحامل على أحد إلا للحق وفى سبيل الحق ؛ فيبدو مجلسه صورة متناسقة منسجمة ترتاح لها كل نفس شريفة فاضلة - وفى مقابل العدالة والعدل والاعتدال - نجد الظلم والجور والجنف أو ما هو بهذا المعنى .

وهذه الفضيلة عند الأخلاقيين نوعان : عدالة كلية - وعدالة جزئية خاصة تنشأ عن سابقتها ، وهم يعنون بالعدالة الكلية اعتدال الممسكات الإنسانية فى مجموعها ما بين عقلية - وغضبية - وشهوية . بحيث لا يطغى بعضها على بعض . فالقوة العاقلة تسوس القوتين الأخرين وتمسك بزمامهما وتصرف أمرهما بقدر ، فلا تدع لقوة الغضب أن تطغى وتثور لاتفه الأسباب أو لغير سبب ؛ فيغدو صاحبها كلباً حقوراً وسبعاً ضارباً يهاجم غيره لسبب ولغير سبب ؛ حتى يبلغ من العدوان غايته أو يلقى حتفه - ولا تدع كذلك لقوة الشهوة أن تثور وتطغى وتتخطى القيود والحدود ؛ فيصبح صاحبها بهيمة من البهم السائبة يتلوث بكل وضر ، ويتمرغ فى كل دنس ، ويبلغ فى كل حماة . وبعض الأخلاقيين يسمي النفس التي تحرف

هذا الانحراف بالنفس الخنزيرية ، نسبة إلى الخنزير الذى هو أقذر وأشره ما عرف من أنواع الحيوان .

كذلك لا تسمح القوة العاقلة لنفسها بأن تطفى على هاتين القوتين ؛ فتعظلهما عما أوجدتا من أجله فى الطبيعة الإنسانية ، لأن طغيان قوة العقل وإفراطها فى قمع القوة الشهوية ينحرف بالمرء إلى الرهبة والتأبل الذى هو إمالة للرجبات الجنسية وإفراط فى النقشف والحرمان . وطغيانها على قوة الغضب والإفراط فى كبهما ، ينحرف بالمرء إلى الجبانة والانكماش والمهانة . وفى هذا وذاك ما ينحرف بالشخصية الإنسانية عن سنن العدالة ، وينأى بها عن طريق المثل العليا . أما الحد الوسط من الانسجام والتناسب والتعادل بين هذه الملسكات ، فهو أن تعمل كل قوة من هاتيك القوى الثلاث فى حدود ما خلقت له ، فلا يترك العقل الزمام للغضب والشهوة ولا يبالغ فى كبهما إلى حد التعطيل ، ولا تقصر هى فى الاستزادة من العلم والحكمة ؛ وبذا تبلغ الشخصية الإنسانية كمال وجودها وتحقق لها فضيلة العدالة الكبرى التى هى كنز الحكمة وأصل الفضائل السامية وسلم الوصول إلى السعادة .

ذاك هو بحمل ما شرعته عبقرية أفلاطون وأستاذه سقراط زعيمى تعاليم الحكمة اليونانية فى القرنين الخامس والرابع ق . م . ليكون منارة هدى للإنسانية فى مهمه الحياة الطامس الاعلام .

وفوق ما تقدم ، حاول أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » ، « القوانين » ، تحقيق هذا النوع من العدالة السككية فى بناء المجتمع المثالى الذى حاول بشئ النظريات أن يضع أسسه وقواعده . وبحمل وصاياه فى ذلك أن توضع الطبقة الحاكمة فى مكانة القوة العاقلة — وطبقة الجند فى مكانة القوة الغضبية — والطبقة العاملة المنتجة مكان قوة الشهوة ، وأن يسود بين هذه الطبقات الثلاث الكبرى من التوازن والتعادل والانسجام ما عرفناه سابقا من التوازن بين هذه الملسكات الإنسانية الثلاث ، فلا تجور الطبقة الحاكمة بالعسف والظلم على الطبقتين الأخرين ولا تترك الزمام للجند يعتمدون بسبب وبغير سبب ؛ بل غضبا للحق وللشرف فحسب ، ولا تجور الطبقات المنتجة : من زراع وتجار وصناع بترك الزمام لها تحصل أسباب الحياة من حلها وحرامها .

فإذا تيسر لمجتمع أن يتناسق مثل هذا التناسق ويتعادل ؛ فإنه سيحقق لنفسه أعظم ما يمكن من السعادة . وكل انحراف عن هذا التعادل يكون سببا لشقاء المجتمع واضطرابه وتدهوره ؛ وما نظن المقام يتسع هنا لبيان مدى الحفاوة التي تلقيت بها هذه التعاليم على مر أربعة وعشرين قرنا من يوم مولدها ، حتى أيامنا هذه التي ما تزال نرمقها بالإجلال والإعجاب ، وقديما شاد عليها الاخلاقيون الإسلاميون أبدع تعاليمهم الاخلاقية .

وأما العدالة الجزئية الخاصة : فهي التي تعرف عند الاخلاقيين والسياسيين باسم العدل ، تلك الكلمة التي يراد بها الإنصاف في توزيع الحقوق بين الافراد والجماعات ، وهذا هو العدل السياسي الذي يظهر لنا على الأخص في تصرفات الحكام والمسؤولين من موظفي الدولة .

وهذه الفضيلة الجزئية العملية هي التي أثارت اهتمام أرسطو معلم الفلسفة الأول ، ولها كرس جانبا هاما من صفحات كتابه الخالد ، علم الاخلاق إلى نيقوماخوس ، وأثنى على المنتصفين بها من المسؤولين عن الحقوق أفرادا وجماعات ، وخص بالإعجاب تلك الصورة السامية التي تبدو في سلوك من ينصفون الناس من أنفسهم فوق إنصافهم الأغيار بعضهم من بعض . وما أبدع قول أرسطو في تمجيد العدل : « فما طلوع الشمس ولا غروبها بأحق منه بالإعجاب » .

ولعل أرسطو الفيلسوف العالم المشهور بتدقيقه العلمي الجاف الذي لا يقيم للعواطف وزنا — لم يتمالك نفسه أمام جلال العدل أن يتقلب شاعرا يبدى إعجابه بالعدل بهذا التعبير البديع الرائع .

وكذلك لعل الذين لم يوهبوا رقة الذوق الأدبي ودقته ولطفه لن يتنبهوا إلى دقة اختيار أرسطو لهذه العبارة فيقولوا : وأي إعجاب في طلوع الشمس وغروبها ؟ إن الشمس لتطلع كل يوم على الملايين من الناس دون أن تثير فيهم شيئا من الإعجاب . . . ولو علموا أن طلوع الشمس وغروبها كل يوم على هذه الدقة التي عرفت بها في مواعيدها لتهب للعالم سر ما أودع فيها من أسباب الحياة ، بلاتمييز بين كائن وكائن ، إنما هو ضرب من العدل معدوم النظير - لعذروا أرسطوا في تعبيره ، ولعلموا أنه هو أيضا في إعجابه بالعدل إلى هذا الحد كان آية في العدل .

وقفنا الله أفرادا وجماعات إلى العلم بالعدل ومكانته والتحلى به وهذا هو السبيل .

مراقبة الدائن أموال المدينه

لحضرة الاستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

للدائن حق عام هلى جميع أموال مدينه الحاضرة والمستقبله . ويتمثل هذا الحق فى رهن وضمآن عاّمين لهذه الأموال . وليس هذا الضمان ضمّانا خاصا يترتب عليه حرمان المدين من إدارة أمواله والتصرف فيها .

ولا يجوز للمدين أن يلحق أو يسبب ضعفا لهذا الضمان العام ، كالالتجاء إلى تهريب ماله . ولذا منح القانون المدنى الدائن وسائل لحماية حقوقه والمحافظة عليها . وتتلخص هذه الوسائل فى ثلاثة أمور :

أولا — الدعوى غير المباشرة وهى دعوى يرفعها الدائن باسم مدينه نيابة عنه ، لأن المدين حينما يكون متقللا بالديون فكثيرا ما يهمل فى رفع الدعوى التى يتوصل بها للمحافظة على أمواله ، إذ يعلم فى قرارة نفسه أن مآل هذه الأحوال تكون فى النهاية لدائنه فلا يهتم بها . فالدائن والحالة هذه يرى أن حقوقه تتعرض للضياع . ولذا أجاز له المشرع رفع دعاوى مدينه التى كان عليه أن يرفعها وأهمل فيها . ويلاحظ أن الدائن لا يرفع هذه الدعوى باسمه هو وإنما باسم مدينه ، ولهذا السبب تسمى هذه الدعوى بالدعوى غير المباشرة .

ويشترط لرفع الدعوى غير المباشرة :

- (١) أن تكون هناك مصلحة للدائن فى رفعها .
- (٢) وأن لا تكون لهذه الدعوى صفة متعلقة بشخص المدين كدعوى الأحوال الشخصية ، مثل دعوى إثبات أو دعوى النكاح أو الطلاق أو نحو ذلك .
- (٣) وأن لا تكون لها صفة أدبية أو معنوية متعلقة بشخص المدين كالمطالبة بتعويض للمدين بسبب إهانة لحقت به مثلا .

(٤) وأن لا تكون من الدعاوى التى موضوعها مال لا يجوز للدائن التنفيذ عليه كسفقة المدين .

ويلاحظ أنه ليس للدائن فى رفع الدعوى غير المباشرة حقوق أكثر من حقوق مدنيه . فللشخص المرفوع ضده الدعوى أن يحتج بجميع الدفعات التى كان يصح أن يحتج بها ضد المدين أن لو رفع هذا الأخير الدعوى . اللهم إلا إذا كانت هذه الدفعات مشوبة بالغش والتدليس .

فإذا رفع المدين الدعوى لا يجوز للدائن أن يرفعها حيث قد قام المدين بما يجب عليه . وإنما يجوز للدائن التدخل فى الدعوى خشية أن ياحقه ضرر . والحكم الذى يصدر فى الدعوى غير المباشرة لمصلحة الدائن يترتب عليه دخول المال فى ملكية المدين ، ويستفيد منه جميع دائنى المدين بلا فرق بين من رفع الدعوى ومن لم يرفعها .

ثانياً — دعوى إبطال التصرفات أو الدعاوى البوليصية ، نسبة لواضعها بولص أحد فقهاء الرومان . وقد نقلها المشرع الفرنسى عن القانون الرومانى ، وأخذها القانون المصرى عن القانون الفرنسى . والغرض من هذه الدعوى إبطال تصرفات المدين الضارة بالدائن . وهى دعوى شخصية للدائن أن يرفعها باسمه هو لا باسم مدينه ضد من تصرف له المدين ، ويستفيد منها الدائن وحده دون سائر الغرماء الذين لم يرفعوها . وإذن فهى دعوى مباشرة .

ويشترط لرفع هذه الدعوى أن يكون دين الدائن سابقاً على تاريخ تصرف المدين ، ودلت القرائن والظروف على أن الغرض من هذه التصرفات هو الإضرار بالدائن ، ومع هذا يجوز رفعها بالنسبة للتصرفات السابقة على تاريخ الدين إذا تبين أن هذه التصرفات قد قصد بها الغش والتدليس والإضرار بالدائن ؛ وذلك كأن يتفاوض شخص مع آخر لإقراضه مالا فى الوقت الذى يقوم بإجراء تصرفات خفية ، حتى إذا مات المقرض اتضح للدائن أن المدين قد تصرف فى أمواله فلا يجد المقرض ما يضمن به حقه ضد المدين . وهنا تفصيل لا يتسع المقام لذكره .

ويشترط أيضاً لقبول هذه الدعوى : أن يكون هناك تدليس أو سوء نية من جانب المدين . ويرى بعض الفقهاء أنه يجب زيادة على ذلك ، لزوم توفر الأضرار بالدائن .

ويلاحظ أن هذه الشروط خاصة بالتصرفات التي لها عوض ، أما التي ليس في مقابلها عوض فيكتفي فيها بشرط الضرر كالهبة .

ويترتب على الحكم الصادر بإبطال تصرفات المدين ، أن المال يدخل في ملك المدين ، وأن الدائن رافع الدعوى هو الذى يستفيد منها وحده دون سائر الغرماء . وحق الدائن في رفع الدعوى مقيد ، فلو أدى الدين للدائن توقف دعواه ، إذ لا مصلحة له في السير فيها .

وأثر الحكم لا يتعدى غير طرفي الخصومة ، فالعقد يبقى صحيحاً بين المدين والمتصرف الذى رفعت ضده الدعوى من الدائن .

كما أن للمتصرف له الحق في طلب التعويض من المدين .

ثالثاً — دعوى الصورية : الصورية عبارة عن تصرف يخالف الحقيقة والواقع ، توصل لغرض مشروع أو غير مشروع كالهبة في صورة بيع .

والغرض من دعوى الصورية هو الحصول على الحكم بصورية التصرف وإلغائه ، وليست جميع التصرفات الصورية قابلة للحكم بصورتها إلا إذا ألحقت بالدائن الذى له في هذه الحالة رفع الدعوى .

ودعوى الصورية تشبه دعوى الإبطال من حيث إنه يتوصل بالحكم بصورية التصرف إلى إلغاء هذا التصرف ، كدعوى الإبطال وتختلف دعوى الصورية عن دعوى الإبطال من جهة أن موضوع هذه الأخيرة تصرف حقيقى وجدى ، بينما أن موضوع دعوى الصورية غير حقيقى . كما أن دعوى الصورية لا تستلزم توفر شروط دعوى الإبطال . ويرى بعض الفقهاء أنه يجب في دعوى الصورية توفر الضرر بالدائن . وأيضاً لا يشترط في دعوى الصورية أسبقية الدين على تاريخ التصرف . وأخيراً أنه لا يجوز رفع دعوى الإبطال إذا تصرف المتصرف له في المال ، اللهم إلا إذا توفرت شروط دعوى الإبطال بالنسبة للمتصرفين لها الأول والثاني .

إثبات الصورية : لا تثبت الصورية بين المتعاقدين إلا كتابة ، وهذا ما يسمى بورة الضد . اللهم إلا إذا كان التصرف مخالفاً للقانون أو للنظام العام ، فإن

مراقبة الدائن

٤٢١

الصورية تثبت بجميع الطرق القانونية . وأما بالنسبة لغير المتعاقدين فتثبت الصورية بكافة الطرق القانونية بما فيها البيئة والشهود .

الفقه الاسلامي : إذا رجعنا الى فقه أبي حنيفة ، لا نجد فيه ما يدل صراحة على وجود مثل هذه الدعاوى ، ومع ذلك توجد وسائل لتحقيق الغاية وتشبه هذه الدعاوى في بعض الاحوال والصور ؛ فمن ذلك ما ورد بتصرفات المريض مرض الموت ؛ فإنه إذا باع المريض مرض الموت ماله لأجنبي بشمن أقل من ثمن المثل الذي هو أكثر من ثلث التركة نفذ البيع ووجب على المشتري إكمال الثمن إذا لم تجز الورثة الثمن المدفوع .

وكذلك إذا باع المريض مرض الموت ماله لأجنبي بشمن دون ثمن المثل ثم مات مديوناً ، وكانت تركته مستغرقة ، فلاصحاب الديون تكليف المشتري بإبلاغ قيمة ما اشتراه إلى ثمن المثل ، وإكماله وأدائه ، فإن لم يفعل بطل البيع . وواضح أن هذا هو عين دعوى الإبطال السابقة .

وكذلك إذا وهب المستغرق تركته بالدين أمواله لوارثه أو لغيره ثم توفي فللغرماء أن يدخلوا أمواله في قسمة إن لم يمضوا الهبة ، ومعنى هذا أن هذه الهبة يصح إبطالها ، ولا نزاع أن هذا هو عين دعوى الإبطال .

فمن هذه الأحكام يتبين أن هناك نوع مراقبة من الدائن لأموال مدينه ، ولكن هذه الأحكام خاصة بالمريض مرض الموت الذي تصرف فيها وهو مريض وتوفي ، ويمكن مع هذا فإن الفقه الحنفي قد قرر مبدأ المراقبة لأموال المدين الضارة بالدائن .

وهناك وسيلة أخرى وهي أن للغرماء أن يطلبوا من الحاكم الحجر على مدينهم الذي يعرض ماله للضياع وبذا تضيع حقوقهم قبله ، ولكن هذا الحجر مقصور على الأموال الحاضرة دون المستقبل ، إذ له بالنسبة لهذه الآخرة حق التصرف فيها كما يشاء . وللوضوح أبحاث دقيقة لا يتسع لها هذا المقام .

لغويات

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

انتظرنى بين الظهر إلى العصر

يجرى هذا الأسلوب كثيراً . وهو يخالف ما يذكره علماء النحو ؛ أن لفظ بين لابد أن يضاف إلى متعدد أو ما فى معنى المتعدد . تقول : جلست بين زيد وعمرو ، أو بين الرجلين ، أو بين القوم . وفى شرح درة ^(١) الغواص الممزوج بها : (بين تقتضى الاشتراك ، فلا تدخل إلا على مثنى أو مجموع) كقولك : المال بين الأخوين ، والدار بين الأخوة (أو ما يؤدى مؤدى ذلك ، كأحد الذى همزته أصلية) ويختص بالنفى وشبهه ، كما فى قوله تعالى : لا تفرق بين أحدهما رسله (وكذلك المشار بها إلى متعدد) كما فى قوله تعالى : مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وقوله تعالى : لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) . . . ، وقوله مذبذبين بين ذلك ، أى الكفر والإيمان ، وأشار إليهما بالمفرد لتأولهما بالذكور ؛ وقوله : لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، أى بين الفارض والبكر ، وقد لوحظ تأولهما بالذكور كذلك . ويرى ^(٢) أبو حيان فى الآية الأخيرة أن الكلام من باب الاكتفاء ، أى عوان بين ذلك وهذا ، وذلك : إشارة إلى فارض ، وهذا : إشارة إلى بكر ، ولكن فى هذا رأى مجالا للتعقيب ؛ فإن المشار إليهما مؤنثان فكان واجبا . . . لو صح هذا — أن يؤتى بإشارة المؤنث ، ولا مناص من التأويل . وخير من هذا ما يراه بعضهم أن ذا الإشارية يشار بها إلى المتعدد كما قال ليبد :

(١) انظر شرح الدرة للألويس ص ١٢٦ (٢) انظر البحر المحيط ص ٢٥٢ ج ١ .

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليبد
وقال شيخ الاسلام^(١) زكريا في آية البقرة : « إن قلت بين تقتضى شيئين
فأكثر ، فكيف دخلت على (ذلك) وهو مفرد ؟ قلت (ذلك) يشار به إلى المفرد
والثني والمجموع . ومنه قوله تعالى « قل »^(٢) بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا
« وإن تصبروا »^(٣) وتتقوا ، الآية « زين للناس »^(٤) حب الشهوات ، الآية ، فالمعنى
عوان بين الفارض والبكر ، وظاهر هذا أنه لا حاجة إلى التأويل وإن قال^(٥)
الرضي إنه يشار بهذا إلى الثني والمجموع بتأويله بالمذكور .

وقد كان من أثر التزام إضافة بين إلى المتعدد أن أول النجاة قول امرئ القيس :
فما بك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فقالوا : إن المعنى : بين أجزاء الدخول .

وأعود بعد هذا إلى المثال الذي صدرت به البحث فأقول : إنه فيما يبدو
لا وجه له ، ولا مسوغ يجزه . وإنى أرى أن هذا الأسلوب صحيح وأن الغاية
والانتهاء فيه تقوم مقام العطف ، فبذلك يكون التعدد الذى تقتضيه بين . فإذا
قلت : سرت بين الظهر والعصر ، فكأنك قلت : سرت بين الظهر والعصر ،
وقد أفادت الى معنى لا يستفاد لو أتينا بالأسلوب على وجهه ، وهو استمرار
السير الى العصر ، فأما إذا قلت : سرت بين الظهر والعصر فلا يبنى الكلام
بهذا الغرض . وقد جاء عن العرب قولهم : « مطرنا ما بين زُبالة »^(٦) فالثعلبية ،
فلما رأى النجاة^(٧) هذا على غير ما قننوا وأصلوا قالوا : إن المراد : مطرنا

(١) انظر كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » المطبوع على هامش تفسير
الخطيب ص ٤٣ ج ١ .

(٢) الآية ٥٨ من سورة يونس .

(٣) الآية ١٨٦ من آل عمران .

(٤) الآية ١٤ من آل عمران .

(٥) شرح الرضى على الكافية ص ٣٤ ج ٢ .

(٦) زبالة والثعلبية منزلان في الطريق من الكوفة إلى مكة .

(٧) انظر شرح الرضى على الكافية ص ٣٦٦ ج ٢ .

ما بين زبالة إلى الثعلبية ، وهذا قاض منهم بأن الأسلوب الأخير غير منسكح وغير متنافر مع قواعدهم . ومرّد هذا إلى المعنى وما يتم به من التعدد ؛ وإذا قيل ما سبق : أى مطرنا ما بين زبالة فالثعلبية أو ما بين زبالة إلى الثعلبية أفاد ذلك اتصال المطر بين هذين الموطنين ، ولا تحصل هذه الفائدة لو قيل : بين زبالة والثعلبية . وقال النابغة (١) الجمعدى :

أيا دار سلى بالحَرورية اسلى إلى جانب الصَّمان فالمنظم
أقامت به البردين ثم تذكّرت منازلها بين الدّخول مُجرّثم
ومسكنها بين الفُرات إلى اللوى إلى مُشعب ترعى بهن فعثيم

— أراد بالبردين طرفى الشتاء — فتراه قال : بين الفرات إلى اللوى ، ولم ير فى ذلك حرجا ، لما كان ذلك يؤدى مؤدى ما بين الفرات واللوى ، ويزيد الفائدة التى ذكرها وهى ترددها فى السكنى بين هذه المواطن بين الفرات واللوى . وجاء فى الحديث (٢) : « كان النّبي صلى الله عليه وسلم يصلى الصبح وأحدنا يعرف جليسه ، ويقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة » فقال الكرماني (٣) : « فإن قلت : لفظ بين يقتضى دخوله على متعدّد ، فكان القياس أن يقال : والمائة بدون حرف الانتهاء ؛ قلت : تقديره : ما بين الستين وفوقها إلى المائة ، وهذا تكلف لا داعى إليه ، والرأى أن التعدد حاصل فى المعنى والحكم ، وهذا محسب فى هذا الأمر ، وجاء أيضا فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (٤) « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ويتكلف شراح الحديث فى هذا أيضا فيقولون : إن المعنى : كما بين أجزاء صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهذا بعيد عن سياق الكلام : فإن المراد حصر الزمن بين العصر والغروب . وجاء أيضا فى الحديث (٥) : « وكانوا يصلون العشاء فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل ، وهذا جار على ما رأيت دون حاجة إلى تأويل . ويقول ابن القوطية فى أفعاله : « أمسينا : صرنا فى المساء ، وهو ما بين الظهر إلى المغرب . »

(١) انظر الخزنة ص ٦ ج ٤ . (٢) انظر صحيح البخارى فى مواقيت الصلاة .

(٣) انظر شرح المعنى على البخارى ص ٥٣٢ ج ٢ . (٤) انظر صحيح البخارى فى مواقيت الصلاة .

(٥) صحيح البخارى ، باب النوم قبل العشاء .

والقارىء بعد هذا — فيما أرى — يخرج باستمساغة المثال الذى هو موضوع البحث .

أذهب إلى فلان ، قل له كذا

يجرى هذا الأسلوب ، وينكره بعض الباحثين ، ويوجب فيه العطف بالفاء ، فيقال : أذهب إلى فلان فقل له كذا . ويذكر هؤلاء أن الوارد فى العربية هو أسلوب العطف ؛ كقوله تعالى : « أذهبوا إلى فرعون إنه طغى فقلوا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » ، وقوله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر » . ويعيب هؤلاء على شرقى قوله :

قف نأج أهرام الجلال وناد هل من بُنَاتِكَ مجلس أو ناد
ويقولون : إن الأسلوب الصحيح أن يقول : قف فنأج .

وفى الحق أن هذا الأسلوب يجرى على ضربين :

١ — فضرب يكون الثانى فيه بسبب من الأول ، فيجعل بدل اشتغال منه ، كما تقول : قم لا إليك عظمتي ، وهذا لا شيء فيه ، ومنه قول شوقي :

قم للعلم وفته التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وعما ورد قديما من هذا الضرب قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل الخيلى : كُرى ، نفسى عن رجاليا
وهو من قصيدته التى مطلعها :

ألا لا تلوماني ، كفى اللوم ما ييا فما لكما فى اللوم خير ولا ييا

فقوله : نفسى عن رجاليا بدل من قوله كرى ، إذ كان التنفيس عن رجاله من لوازم كرى خيله ومستبعاته .

وعما يقرب من هذا وإن كان الفعل الثانى فى صيغة النهى قول الشاعر :

أقول له : ارحل ، لا تقيمن عندينا وإلا فكُن فى السر والجهر مسلما

فقوله : لا تقيمن بدل اشتغال من قوله : ارحل ، ولهذا أتى بالجملة الثانية مفصولة غير موصولة بالعاطف ، إذ كانت فى معنى الجملة الأولى ، فكان بين الجملتين كالالاتصال ، كما هو مقرر فى البلاغة .

ب - والضرب الثاني ألا يكون الحديث الثاني من مستلزمات الحديث الأول كما في المثال الذى صدرنا به البحث ، وهذا موضع الإنكار والنقد . وأرى أن له وجهاً ومخرجاً في العربية ؛ وذلك أن تكون الجلة الثانية واقعة موقع الاستثاف البياى ، إذ كانت في موضع الجواب عن سؤال ينشأ عن الجلة الأولى . فإذا قلت لغلامك : اذهب الى فلان ، فهنا مظنة أن يخطر بباله السؤال عما عسى أن يبلغه إياه ، فتقول له في الجواب عن هذا : قل له كذا . وعلى هذا يكون المقام أيضاً للفصل ، إذ يكون هذا من مواضع شبه كمال الاتصال .

وقد جاء من هذا الضرب قوله تعالى : تمالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، وما ورد في حديث ^(١) أم سلمة رضى الله عنها : أنها قالت : فأرسلت إليه - تريد الرسول عليه الصلاة والسلام - الجارية ، فقلت : قومى بحنبه قولى له : تقول لك أم سلمة ... ، ورد قولى دون قام في بعض الروايات واقتصر عليها الحافظ ابن حجر ، ويقول القسطلانى بعد أن أورد الرواية السابقة : ولانى الوقت والاصيل : فقولى ، وورد الحديث أيضاً في صحيح مسلم بلفظ : فقولى ، وأيا ما كان الأمر فإن رواية : قولى ، رواية صحيحة لم ينكرها أحد ، وقد رجعت الى كتاب ابن مالك : شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح ، الذى يذكر فيه ما ورد في صحيح البخارى من الحديث مبيناً في ظاهر الأمر لما يقرره علماء العربية فلم أره تعرض لهذا .

ومن هذا الضرب قول محمد بن بشير الخارجى في رثاء أبى عبيدة بن عبد الله ابن ربيعة يخاطب ابنته بهذا زوج عبد الله بن الحسن :

فقومى اضربى عيفيك يا هند لن ترى أباً مثله تسمو إليه المفاخر

وإذا كان هذا البحث يصحح المثال الذى هو موضع البحث ، بأن صحة قول شوقى :

قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بناتك مجلس أوناد

وكان بمنجاة من اللوم والعيب بيته .

[١] أنظر الحديث في أبواب السهو في آخر كتاب الصلاة من صحيح البخارى .

[٢] واظر الأغاني ص ١٥٧ ج ١٤ .

رسالة عبد المسيب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

— ٢ —

ولقد كان قتادة رضى الله عنه من أحبار التابعين ومن يرجع إليهم فى التأويل وتروى عنهم السنة ، وكان أحفظ أهل زمانه كما قالوا . وقناعة هذا كان من المولعين بابن المسيب ، يلزمه الايام والليالى يأخذ عنه . روى أبو فميم فى الحلية أنه لزمه أربعة أيام يأخذ عنه ، وتقبل أنه أقام عنده ثمانية أيام وفى الثامن قال له : ارتحل عنى فقد أترقتنى .

وقال قتادة : أتيت ابن المسيب ، وقد ألبس ثبان شعر ، وأقيم فى الشعر ، فقلت لفائدى : أدنى منه ، فجعلت أسأله خوفاً أن يفوتنى وهو يجيبنى والناس يتعجبون . هذا وإن له لمسانيد كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وقد تألق اسمه فى شيوخ البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة السنة الاثبات .

وفى تاريخ ابن كثير ، كثير من الاخبار المنوطة بناحيته العلمية ، ومن أهرقها فى التصوير قول الإمام الزهرى إمام المحدثين : جالسته سبع حجج ، وأنا لا أعلم عند أحد علما غيره . وقول مكحول : طفت الارض كلها فالتقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقول على المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه ، وإذا قال مضت السنة لحسبك به ، وهو عندى أجل التابعين . وقول أبى حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبى هريرة . فأما عليه بتأويل الاحلام ، فإن ما روى له منه يبلغ منى العجب ، فهو يؤول الرؤيا

تأويلاً دقيقاً ، لا يتخلف مع غرابة ذلك التأويل ، وربما أول حيواناً أو شيئاً
بشخص معين فيقع كما يقول .

جاءه رجل فقال : إني رأيت حمامة وقعت على منارة المسجد ، فقال : يتزوج
الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فكان !

وروى ابن سعد عن عمر بن حبيب بن قريع : كنت جالساً عند سعيد بن المسيب ،
وقد ضاقت على الدنيا وركبتني ديون ، فجاء رجل ، فقال : رأيت رؤيا . قال : ماهي ؟
قال : أخذت عبد الملك بن مروان فأضجته إلى الأرض : ثم بطحته فأوقدت
في ظهره أربعة أوتاد . قال : ما أنت رأيتها ؟ قال : بلى . قال سعيد : ما رأيتها لا أخبرك
أو تخبرني . قال ابن الزبير ، رآها وهو بعثني إليك ، قال : إن صدقت قتل عبد الملك
ابن الزبير . وخرج من صلبه أربعة كلهم يكون خليفة . قال الرجل : فذهبت
إلى عبد الملك فأخبرته فسر سروراً عظيماً ، وسألني عن حال سعيد ، ثم قضى ديني
وأغدق علي . وقال رجل في مجلسه : رأيت كأن عبد الملك بن مروان يبول في قبة
مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أربع مرات ، فقال : إن صدقت قام من صلبه
أربعة خلفاء ، وهكذا تجد الكثير مما نقل عنه في هذا الباب مما يصوره لك تصويراً
صحيحاً ، حتى لا ترى أنه أقل منزلة في ذلك من ابن سيرين الذي كان له الصيت
الذائع فيه .

يجح لك يا ابن المسيب ! لقد كنا نجمل من أمرك الشيء الكثير ، فإذا أنت
من مفاخر هذه الأمة ، وإذا أنت جدير أن يقول فيك الصحابي الجليل عبد الله
ابن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسهره . ولقد يتصل بذلك
ما نقل عن الإمام من جمل وعبارات ومحاورات بليغات لها دلالتها على ما كان
له من بصر وصدق نظر وغزارة مادة وصفاء نفس . فمن ذلك ما روى أبو نعيم
في الحلية : أنه لما جرد ليضرب يوم أحجم عن البيعة لولي العهد رآته امرأة
فقال : هذا مقام الخزي . فقال : من الخزي فررنا .

وحدث ابن عيينة أنه سمع سعيداً يقول : : إن الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل
ميل ، وأنذل منها من أخذها بغير حقها ، وطلبها من غير وجهها ، ووضعها في غير

سبيلها ، . هذه حكم لو تدبرها الناس لرضى المقل بإقلاقه ، ولتحرى المسكر في جمعه
لماله ، ولحاسب نفسه كيف تنفق ؟ وفي أى سبيل تضع المال ؟ .
وكان يقول لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار عليهم في قلوبكم ،
حتى لا تحبط أعمالكم .

وروى على بن زيد عنه أنه قال : ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من قبل
النساء . ولقد بلغت ثمانين سنة وما شئ أخوف عندي من النساء ، وكان سعيد
ابن المسيب يقول : يد الله فوق عبادته ، فمن رفع نفسه وضعه الله . ومن وضعها
رفعه الله . الناس تحت كنفه يعملون بأعمالهم : فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه
من تحت كنفه فبدت للناس عورته .

ونقل الشعرائي في طبقاته عنه : ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا
وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر
من نقصه وهب نقصه لفضله . وحكى الشعرائي أنه كان يقول إذا دخل الليل
لنفسه : قومي يا مأوى كل شر ، والله لا دعئك تزحفين زحف البعير فـكان يصبح
وقدماه منتفختان ، فيقول لنفسه : بهذا أمرت ولذا خلقت . ولعل في هذا بعض
ما يلقي لك ضوما على ما كان في ابن المسيب من تقوى ونسك ، وهو الناحية الثانية
التي أشرت إليها سابقا . والناحية الثالثة صبره على المحنة وشرائه نفسه ابتغاء
مرضاة الله . وهما ناحيتان مشرقتان في تاريخ العلم والعلماء ، تتمثلان أروع
تمثل في سعيد ، وفيهما أعظم العظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وأما الناحية الثانية من نواحي ابن المسيب النفس والزهادة ، فإن المتتبع
لتاريخه يلبس أنه منها بالمحل الأول ، والوضع الذي لا يجهل . لقد نسك حتى أعيت
بجاراته ، وقتت حتى عزت مداناته ، وتحامل على نفسه فنزلت على حكم الجهاد
الصادق . كان قلبه معلقاً بالمساجد ، فسلك في المحافظة على الصلوات في الجماعة
مسلكاً انفراداً بالتوفيق له ، لقد حدث عن نفسه ، وحدث الرواة عنه أنه واظب
على صلاة الجماعة أربعين سنة لا يشذ منها وقت ، يستميت في سبيل ذلك ويضحي
فيه بأغلى ما عنده ، واعتلت عينه يوماً فقبل له : لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى
الحضرة ووجدت ريح البرية لنفعلك ذلك ، قال : فكيف أصنع بشهود العنمة والصبح

وفصح له بعض خلصائه أن يتمتع عن شهود الجماعة أيام امتنع عن البيعة للوليد ؛ حتى لا يعرض نفسه للسخط ، وكان الأمير يكتبني بأنه يبعث إليه في المسجد فلا يجده ، فلما قيل له ذلك ، وأنا أسمع الأذان : حتى الصلاة حتى على الفلاح لا يكون ذلك أبداً ؛ بل إنه كان ينتظر الصلاة قبل وقتها عملاً بالسنة ، ومسارة إلى الخير وعمل الجنة ، ويقول في ذلك : ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد ، وما دخل على وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها ، ولا دخل على قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق . يخج لك يا بن المسيب ! إن من عبّد الله كأنه يراه لم يكن أحب إلى نفسه من هذه الصلاة . نسأل الله أن يحققنا بتلك المقامات ، وأن يجعلنا من أهلها .

وكان لا يدع أن يقرأ القرآن في سفره وحضره ، وفي رواحه وغدوته ، يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويحفظ به دينه وخلقه . ومما حدث به ابن حرملة عنه قال : حفظت صلاة ابن المسيب وعمله بالنهار ؛ فسألت مولاه عن عمله بالليل فقال : كان لا يدع أن يقرأ (بص) فلما مر بالسجدة بسجد ، وسجدت الشجرة معه ، فسمعتها تقول : اللهم أعطني هذه السجدة أجراً ، وضع بها غنى وزراً ، وتقبلها مني كما تقبلها من عبدك داود !

وقد صلى الفجر كما قال الرواة بوضوء العشاء خمسين سنة . وعرف عنه أنه كان يتابع الصوم ويسرده سرداً ، ولم يكن شرها ولا متشبهياً ، فقد كان يفطر في المسجد من شراب يؤتى له به من بيته .

وكذلك كان حجاجاً عجاجاً أشقى نفسه ليسعد بها بكثرة الخروج إلى البيت العتيق ، وقضاء المناسك يعاود ذلك أربعين مرة . وكان يذهب في العبادة مذهباً صحيحاً لا يحفل فيها بالظواهر والمظاهر ؛ بل يعتمد بالناس إلى ما يؤسسها أساساً مدعماً وإلى ما يخرج به الخير مجسماً . قيل له وقد رأى قوماً يصلون فيكثرون بين الظهر والعصر : ألا تنعبد مع هؤلاء ، هذه هي العبادة لو تقوى على ما يقوى عليه هؤلاء ! فقال : إنما العبادة التفكير في أمر الله والورع عن محارم الله وأداء الفرائض . فأساس الدين عند هذا الإمام علم نافع ، وخوف وازع ، والتقرب إلى الله بأحب شيء إليه ، وهو ما افترض على العباد . فأما هذه النوافل فإنها

لا تقبل إلا بعد تحقق تلك النواحي على أصح الوجوه ، ولقد نستطيع أن ندرك مبلغ هذه النواحي من الإمام وتقديمه لها بما كان من حرصه على المكتوبة واحتفاله بها ، مع خوفه من النساء ، واستعاذته بالله من فتنهم . لقد كان يقول : ما شيء أخوف عندي من النساء وقد بلغت السبعين . وأما تفكره في أمر الله ، فحدث عن البحر ولا حرج .

وفي هذه المناسبة أستطيع أن أنتقل بك إلى الناحية الثالثة من نواحيه ، وهي جموده على التمسك وأخذ نفسه بالعزيمة بلا رخصة ولا هوادة ، وإرخاص نفسه في ذات الله فيمن بشرى نفسه ابتغاء مرضات الله . لقد كان عفأ إلى أبعد حدود العفة ، لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ؛ بل كان لا يقبل الشربة إلا من بيته حتى وهو صائم عند الإفطار .

وكان لابن المسيب عطاء في بيت المال ، يبلغ نيفا وثلاثين ألفاً ، فلما دعي لأخذها قال : لا حاجة لي فيها ، ولا في بني مروان ، حتى ألقى الله تعالى فيحكم بيني وبينهم . وأناه ابن عمه بأربعة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها . على أنه كان يجمع المال من حله ليصون وجهه ، ويحفظ عرضه فكان يتجر في الزيت ، ومات عن نحو ثلاثة آلاف دينار ، وكان قبل موته يقول : اللهم إنك تعلم أنني لم أجمع هذا المال إلا لأحفظ به وجهي وأصون به عرضي . وأعوذ به على جيراني وأهلي . على أنه كان سمحاً لا ينازع أحداً شيئاً ، ولا يخاصم أحداً في شيء ، فلو أن أحداً ادعى رداءه لنزعه إليه ؛ ذلك أنه كان مهذباً صديقاً وخاشعاً يدعو إلى الله ويدل على جنابه الرحيب .

ولقد كان من آثار تشدده في الدين وإرخاص نفسه في ذات الله أنه كان ينظر إلى الملوك والأمراء نظرتة إلى سائر الدماء ، فلا هو بالخاطب لودهم ولا المنهات على دنياهم . لقد صلى أمامه الحجاج يوماً صلاة فجعل لا يحسن ركوعها ولا سجودها . فأخذ كفأ من حصباء فخصبه بها ، قال الحجاج : فما زلت أحسن الصلاة بعدها . ثم ما كان يبعث إليه ولا يهيجه . وذهب الخليفة عبد الملك إلى المدينة ووقف له على باب المسجد . وأرسل إليه فرفض لقاءه مع إغلاظ الرسول له . حتى قال للرسول : إن الخليفة ليست له عندي حاجة وإن تكن له

حاجة فهمي غير مقضية . ولما يئس الخليفة من لقائه ، قال : رحم الله أبا محمد
يا بني إلا صلابة !

وحدث ميمون بن مهران : إن عبد الملك قدم المدينة واستيقظ يوماً من قائلته
فقال لحاجبه : أنظر هل ترى أحداً من حدائي في المسجد النبوي ؟ فذهب فلم يجد
إلا هذا الشيخ الكبير : فأشار إليه بأصبعه فلم يتحرك ؛ فأناه الحاجب وأغلظ له
فقال الشيخ : وما حاجتك . قال : إن أمير المؤمنين . . . فقال الشيخ : لست من
حدائ أمير المؤمنين . ولقد فعل مثل ذلك مع الوليد بن عبد الملك بمسجد المدينة
فرفض لقائه ، وهما معاً داخل المسجد ؛ فمهم الوليد به ولكنه نصع فانتصح . ولقد
رفض البيعة لهذا الولد وأخيه هشام ، وهدد وعرض على السيف ، وضرب خمسين
سوطاً ، وطيف به في الأسواق ما عدل به شيء من ذلك عن رأيه وعزمه . وبعد
فهل ترى أدل على صدق العزم والثبات على الحق من قصة ابنته وزواجه ؟ لقد
حاول الخليفة أن يزوجهما من ابنة الوليد ، فقال : لا بلاء فيه ، ونشأ عن ذلك أن
ضرب وأهين في ذات الله ، فأما أبو وداعة الطالب الفقير فقد عرضت عليه عرضاً
ثم زفت إليه زفاً ، ثم دفعت إليه النفقة ، وهي قصة شريفة طريفة أوردتها العلماء من
المؤرخين والصوفية . قال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدني
أياماً فلما جئته قال : أين كنت ؟ قال : توفيت أهلي فاشتغلت بها ، فقال : ألا أخبرتنا
فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحم الله
ومن يزوجني وما أملك ، إلا درهمين ! فقال : أنا . ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على
نبيه وزوجني على درهمين ، فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح وكنت صائماً
فقدمت عشائي لا فطر وكان خبزاً وزيتاً فإذا بآت يقرع الباب فقلت : من هذا ؟
قال : سعيد . فأفكرت في كل إنسان إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم ير منذ أربعين
سنة إلا بين بيته والمسجد ، فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب ، فقلت : يا أبا محمد
ألا أرسلت إلي فأتيتك ، فقال : لانت أحق أن توتي ، قلت : فما تأمر قال : إنك كنت
رجلاً هزلاً فتزوجت ففكرت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك . فإذا هي قائمة
من خلقه فدفعها وذهب : فسقطت من الحياء ثم تقدمت إلى القصعة فأخفيها ، ثم
صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاءوني فقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجني

ابن المسيب ابنه اليوم وقد جاء بها على غفلة فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ! قلت : نعم وما هي في الدار . . . وطالت القصة ، ثم يقول أبو وداعة : إنني حين دخلت وجدت أجمل الناس ، وأحفظهم لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسوله ، وأعرفهم بحق الزوج ، قال : فكث سعيد شهرا لا يأتيني ولا آتية ثم عدت إلى مجلسه ، ولما عدت وجه إلى بعشرين ألف درهم .

رحمك الله يا أبا محمد ! ماذا يكتب القلم فيك وأية ناحية يسلك من نواحيك ؟ أعملك وعرفانك ؟ أم تقاك وإيمانك ؟ أم صلابتك في الحق وإرخاص نفسك في ذات الله . . . ؟ لقد كنت من الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وإلى آجلها حين تنافسوا في عاجلها ، يهدمون الدنيا فيبنون بها آخرتهم . ويبيعونها فيشترون ما بقي لهم . قد أحبوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة . بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، فلا يرون نائلا مع ما نالوا ، ولا يرون أمانا دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

مركز توثيق ودراسات إسلامية

المطل

كتب الجاحظ الى رجل وعده : أما بعد فإن شجرة وعدك قد أوردت ، فليكن ثمرها سالما من جوائح المطل . والسلام .

وقال المهلب بن أبي صفرة القائد الإسلامي المشهور لبنيه : يا بني إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلما ، فكفي بذلك تقاضيا .

أخذها شاعر فقال :

أروح بتسليمي عليك وأغتندي وحسبك بالتسليم مني تقاضيا
وقال شاعر آخر :

أروح مخبرا وجهي بشاني وحسبك أن أراك وأن تراني
وما ظني بأن يعيه أمرى وبملم حاجتي ويرى مكاني

رسالة الحياة وكيف تؤدي

لفضيلة الاستاذ الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ بالأزهر

أنشأ الله الكون على أبداع نظام، وأحكم صنع حيز الأفهام، ودوخ العقول؛ فالأفهام تقف دونه حائرة، والعقول تخر بين يديه ساجدة. فالسما والارض وما بينهما، والشمس والقمر والنجوم كل يؤدي وظيفة في الحياة على نظام ثابت يرصل إلى غاية عظيمة.

هذه المخلوقات لها رسالة خلقها الله لها، فهي تؤديها على أتم وجه. دون توقف أو اصطدام. والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون.

هذا الكون الذي خلقه الله على تلك الصورة وهذا النظام البديع، سخره للإنسان ووكّل إليه عمارته والعمل فيه؛ ليحيى حياة النعم والسعادة. وقد حث الله على التفكير في الأرض والسما والماء والهواء؛ لاستنباط ما يسعد بني الإنسان ويرقي الإنسانية إلى مراتب الفلاح والكمال.

فرسالة الإنسان في الحياة رسالة عظيمة لا يدرك عظمتها إلا من يعرف مقدار النعمة التي أنعم الله بها عليه، فهو خاق عظيم ما استجاب لحافه ولبي دعوة باريه؛ فسار على نظام العبودية الحقة، وسبح في فلك الطاعة لا يريم عنه ولا يتحول، كما أن الشمس والقمر كل في فلك يسبحون. فيؤدي رسالته في الحياة في ظل هذه العبودية، فيقوم بما كلف به من عمل على وجه الإلتقان والكمال دون إفراط أو تفريط، فإن حاد

عن ذلك فهو مفرط في حق نفسه وحق أمته وحق الناس أجمعين . وهو بعدُ
مستول بين يدي الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يعلم خائنة
الاعين وما تخفي الصدور .

ثم هو مجازي بما يعمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فمن يعمل مثقال ذرة
خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

فالعالم — رجل الدين — رسالته في الحياة : تهذيب النفوس ، ومعالجة
القلوب ، وبيان سبل الخير والترغيب في سلوكها ، وطرق الشر والتفكير من
ولوجها ، ونشر العلم ، وتيسير فهمه ، والرفق بالجاهل ، ولين الجانب للمتعلم ،
والجد في نشر الفضائل ، وبث النصائح ، مستغنياً بالصعاب في سبيل ذلك لا يثنيه
عن قول الحق ترغيب أو ترهيب ، يفعل الخير قبل أن يورصى بفعله ، وينأى عن
الفساد قبل أن ينهى عن فعله ، فهو قدوة في عمله وعمله وخلقه ، لا يتملق لإامولاه
ولا يذل إلا لخالقه ، يستمد عظمته من عظمة رسالته ، وغناه من قناعته ، وثقته
برازقه : شعاره الذي يعتز به قول الإمام الشافعي رحمه الله في الزهد والقناعة
والتعفف عما في أيدي الناس :

أنا إن عشت لست أعتمد قوتاً وإذا مت لست أعتمد قبراً
همتي همهمة المملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرأ

والحاكم رسالته أن يعدل في الرعية ، ويقسم بالسوية ، لا يفرق بين قريب
وبعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ويرعى شئون الناس بالقسطاس ، ويسهر على
مصالحهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ويضرب البغاة والظلمة والمفسدين في الأرض ،
ويشجع المحسنين العاملين لمصلحة الأمة ، ويؤلف بين المتخاصمين ، ويعمل على توحيد
كلية الأمة وجمع صفوفها : حتى لا يكيد العدو للأمة وهي متفرقة ، فيذهب ريجها .
ومن رسالة الحاكم إشاعة الأمن في البلاد ، ونشر التعليم ، والمحافظة على
الصحة العامة ، ومحاربة الفاقة بإيجاد الأعمال للمتعطلين ، والإنفاق على العجزة ،
ومن في حكمهم من الأطفال والأرامل .

والمحكوم رسالته في الحياة أن يكون للحاكم العادل عوناً على تأدية رسالته ،

رسالة الحياة وكيف تؤدي

٤٤١

فيطيع أوامره ، وينفذ القوانين ، ويعينه على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، كما يعينه على اقتلاع جذور الفساد من المجتمع ، وتنمية سبل الخير .

أما من وكل إليه تربية النشء فرسالته في الحياة غرس الوطنية في قلوب تلاميذه ، وتهذيبهم وتغذية أرواحهم بالعلوم ، وتبصيرهم بشئون دينهم ودنياهم ، وتنشئتهم على العزة والكرامة وحب الخير والمروءة والإقدام ، والتخلق بما يكسبهم الثناء والمجد .

وكذلك كل عالم في فن من الفنون عليه أن يبذل جهده ، لينفع بفنه أمته ، فيحاول أن يفكر ويخترع ما يعود على الأمة بالخير في زراعتها وتجارتها وصناعاتها ، كما يفكر في تقوية مركز أمته أمام الدول لتكون مسموعة الكلمة مرفوعة اللواء .

وكل من يستطيع نفع بلاده ولا يفعل فقد فرط في أداء رسالته . وكل من يستطيع معونة الناس الذين يحتاجون إلى المعونة ولا يفعل ، فقد فرط كذلك في أداء رسالته . فالأطباء تتصل رسالتهم بالإنسانية الكاملة ، والرحمة بالضعفاء ، فهم مسئولون عن تخفيف آلام المرضى والقيام على علاجهم ، ولا يصح أن يدخل في حسابهم غنى المريض وفقره ، فالطبيب إنسان جعل الله رسالته في الحياة تخفيف الآلام ، ومداواة الأسقام ، فإذا رأى ذلك ثم وقف جامدا حتى يأخذ المال ولو بمن لا يملكه ، فإنه حينئذ يحجم عن أداء رسالته السامية الإنسانية ، ويلصق بنفسه أنه تاجر ينتهز الفرصة ويستغل الحاجة ؛ بل إنه حينئذ إنسان نزعت من قلبه الرحمة ، وهي إنما تنزع من قلوب الأشقياء .

والغنى الذي يسمع بأذنه شكوى الجائع ، ويرى بعينه عرى العارى أو يعلم من أمر جيرانه ما هم فيه من حاجة ومتربة ، ثم لا تتحرك يده إلى جيبه ليطعم الجائع ، ويكسو العارى ، ويقضى حاجة المحتاج ، هو كذلك في غفلة عن رسالته ، ومتسربل بالكفر بنعمة خالقه . وهكذا كل من الزارع والتاجر والصانع ، كل في عمله : رسالتهم أن يقوم كل واحد بعمله خير قيام ؛ فيتم الزارع بالفراس ويلتمس الوسائل الحديثة للاستنبات ، ويبذل جهوده في حقله لينتج إنتاجا حسنا ؛ كما يهتم التاجر باستجلاب البضائع ، وتيسير الحوائج للناس ، متوخيا في ذلك

المصلحة العامة للناس دون أن يستغلهم أو يغشهم أو يدلس عليهم . وكذلك الصانع يتقن صنعه ، ويحاول أن يكون دائماً في تقدم مع حرصه على الصدق ، والأمانة والوفاء .

لو أدى كل فرد رسالته على ما ينبغي ، وفكر أنه تحت عين الله ينظر إليه ويراه ، وأنه إن أحسن في عمله أحسن الله إليه وضاعف له ، وأن كل عمل سواء كان دينياً أو دنيوياً خاصاً أو عاماً متى أخلص المرء فيه النية وأتقنه ابتغاء وجه ربه فسيجد من توفيق الله له وتيسيره له في الدنيا وثوابه وكرامته في دار المقامة ، ما لا يقدر قدره إلا الله .

ولو أدى كل فرد رسالته في الحياة ، وقام بأداء الناحية التي هيأه الله لها أداء حسناً ، لتحققت السعادة للجميع ، وتلك هي الغاية التي يريد بها الإسلام فيما أتى به من تشريع وأحكام . وهي رسالة القرآن الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له المسلمون الأولون ، فعزوا بعد ذل ، وسعدوا بعد شقاء ، وأصبحوا المثل الأعلى للأمم الحية الناهضة : لأن كل واحد منهم كان يشعر بالمسؤولية في أداء الرسالة التي كلف بها ، والواجب الذي عليه لله وللناس .

مركز تحقيق كميوتير علوم إسلامي

الجود

قال أكرم بن صفي حكيم العرب : ذلّوا أخلاقكم للمطالب ، وقودوها إلى الحماد ، وعلوها المكارم ، ولا تقيموا على خاق تدمونه من غيركم ، وصلوا من رغب إليكم ، وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل ، فتعجلوا الفقر . أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

أمن خوف فقر تعجلته وأخرت إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغني وما كنت تعدو الذي تصنع
لا يريد الشاعر فيما يظهر أن ينفق الإنسان كل ما يجمعه فلا يدخر للنواب
حصه منه ، بل يريد أن يحود الإنسان منه ليبارك له فيه .

فَكَّنَا لِلَّهِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم علي أبو الحشب
المدرس بكلية الشريعة

كذب من يزعم أن الحديث في إعجاز القرآن ينتهي إلى حد ، أو يصل إلى غاية ، أو ينضب له معين ، بل إن الفارئ فيه ، المتأمل لمعانيه ، كلما أمعن النظر ، وأطال التأمل ، وأغرق في التفكير ، بدا له منه العجب ، وظهرت الغرائب ، وأيقن أنه يُعطى منه ما يُعطاه الواقف على شاطئ المحيط من الرذاذ حينما يقذفه بالحجر . . .

وهذه قضية فرغ الباحثون منها ، وانتهوا إلى تقرير الصواب فيها ، وكان الإعجاز هو الإعجاز حتى في تقريب هيكله ، وتصوير هيولاه ، ليظل الناس يكدون ويجدون ، ويعانون ويقاسون ، ويدأبون في التحصيل ، ويكدحون في الطلب ، إلى أن تقوم الساعة ، ويطوى الله الأرض ومن عليها . . . وهو يتحدى البشر في جميع النواحي معلناً بذلك أنه . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يستطيعون أن يسهبوا غوره ، ولا أن يدركوا كنهه ، ولا أن يعرفوا ما تضمنه من عبر ، أو احتواه من عظات . ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فلا أفصحهم بياناً ، وأقومهم لساناً ، وأعذبهم كلاً ، وأروعهم حكماً ، وأقدرهم على تأليف الحجج ، وزخرفة الأدلة ، وترتيب المنطق ، يقف له في الطريق ، أو يعارضه فيما يقول ، اللهم إلا محاولات العاجز ، ومساوالات الضعيف ، وليست المسألة أكثر من أن يتفرغ له الذهن ، وينقطع له التفكير ، ويستجم الخاطر ، فإنه — حينئذ — لا يشك في أنه أمام قدرة باهرة ظاهرة ، تسجد لها العقول الجبارة ، وتذهن لسلطان سطوتها الأفكار الكبيرة . . .

وقد جرت التقاليد أن العرب وهم دهاقين القول ، وجهابذة الكلام ، وصيارفة الحديث ، لا يُعرف الرجل منهم إلاّ بناحية من البلاغة يجيدها ، وأسلوب من الفصاحة يتقنه ، ولا يستجيدون واحداً منهم في كل الأغراض ، ولا في جميع الأحوال ، ولذلك كان المأثور عنهم أن يقولوا : « عنتره إذا ركب ، والأعشى إذا طرب ، وقد اشتهر بعض الناس بأبواب خاصة من الشعر لا يحسنون إلا فيها ، ولا يجلون إلا في ميادينها . فهذا شاعر الرثاء ، وذاك شاعر الاعتذار ، وذلك شاعر الهجاء ، وهكذا دواليك لا يتوفر لواحد أن يجرى في كل مضمار ، أو يسبق في كل شوط .

ولكن القرآن كان من إعجازه التصرف في كل فن ، والإجادة في كل ناحية . والنبي صلى الله عليه وسلم كرمه ربه أحسن تكريم ، واحتفل به في مناسبات مختلفة من تلك المناسبات التي كانت تقتضي نزول جبريل عليه بالوحي ، لا يشك في ذلك مكابر ، ولا يمارى جاحد ، إلا أني لم أطرب لذلك كما طربت حينما قرأت : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلبوا تسليماً ، وليس ذلك لسلاسة الالفاظ ، وقوة التركيب وتناسق الجمل ، وخفة الحروف على اللسان ، وعدم كراهيتها في السمع ، وغير ذلك مما يتعرض له علماء البلاغة ، ويهتم بالبحث عنه أمثال عبد القاهر الجرجاني وأبو هلال العسكري .

ولكنني نظرت إلى نوافذ أخرى شاهدت منها أشياء وأشياء تشع عنها الآيات المكرّمة ، هي فيما يرى الرائي ظلال وأطراف ، وألوان وصور ، وأرواح ومعان ، ولب اللب ، وخلاصة الخلاصات .

وما حاجة الناس إلى أن يحملوا حملاً عنيفاً ليجعلوا الرسول منهم بهذه المثابة وتلك المكانة ، ويذلوا له من الاحترام والتقديس ، والحفاوة والإعظام ، والمهابة والأدب ، ما هو أشبه بالتكاليف الواجبة ، أو الطاعات المفروضة ، وهو لا يعدو أن يكون مبلغاً لما أنزل الله عليه ، وناقلاً لما يوحى إليه ، وهم إنما يعبدون الله وحده ، لا يشركون به شيئاً .

إلا أنني أيقنت أن المعلم الذي تنعدم مهابته من النفوس ، وتذهب مكانته من القلوب ، ويفقد صلته بتلاميذه ، بحيث لا يكون هنالك ود متبادل وتقدير متوفر ؛ لا يرجى نفعه ، ولا ينمر ثمره ، ولا يؤدي عمله على الوجه الأكمل ، أو يفيد الفائدة المطلوبة ؛ ولهذا كان يؤثر عن بعض العلماء قوله : ذلك طالباً فعمزت مطلوباً .

وقد كان جماعة من المنافقين ، يبالغون في إعنات النبي صلى الله عليه وسلم ، والكيد له متخذين لهذا شتى الصور ، وألوان النكيات ، من عدم خضوعهم للكتاب الذي نسخ الله به جميع الكتب ، وعدم اكترائهم بالرسول الذي جعله سبحانه خاتم الرسل ، يرددون اسم التوراة والإنجيل وغير ذلك من الصحف التي ذهبت معالمها ، والأسفار التي تغيرت حقائقها ، يريدون أن يتحاكوا إليها في الخصومة ، ويستنبذوا بها في حسم النزاع ، وهي أوهام وترهات ، ودعاوى كاذبات ، وخرافات ما بعدها خرافات ؛ لذلك جاءت : فلا وربك لا يؤمنون ، وهي تقصد إلى أن إيمانهم مشروط بتحكيمة فيما شجر بينهم ، وألا يكون في صدورهم حرج من ذلك ، ويسلوا تسليماً .

وقد كانت العرب مع بداوتها وبساطتها ، وجفوتها وغلظتها ، تقدس السيادة والسلطان ، وتعتز بالهيل والهيلسان ، ولم يكن هنالك ما يقضى على كبريائهم ، ويُخسِف من غلوائهم ، ويظلمن من غطرستهم ، إلا أن يتحكم فيهم سوام ، ويتولى الفصل فيما شجر بينهم غيرهم ، وهو إذا كان من هؤلاء الذين لم يشتهروا بالثراء والنعمة ، والغنى واليسار ، والعزة والجاه ، كان ذلك أدهى إلى النكابة بهم ، والازراء عليهم .

وربما كان سر الإعجاز ، وسحر البلاغة ، إلى جانب كون الآية تهدف إلى غرض اجتماعي نبيل ، ومقصد من مقاصد التربية شريف ، ونظام من نظم الحياة العمرانية ، يجب ألا يغفل توفره في القدوة من الاحترام والإجلال ، والتعظيم والحفاوة ؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإذعان له ، والاستفادة من تعاليمه ، والقبول لما يبشر به من هداية ورحمة — أنها تضمنت معنى الدين كله ، وروح الشريعة جمعاء ، وليس في رسالة الرسل ، وتعاليم الأنبياء ، وراء تطبيق ما جاءوا به من

الوحى ، ونزل عليهم من الأحكام ، والتزام ما أمرنا به من التكاليف ، وخضوع
هواجسنا وأفكارنا ، وحركاتنا وسكوننا ، وأقوالنا وأعمالنا ، ورضائنا وغضبنا ،
وفرحنا وسخطنا ، لكل ذلك بحيث لا يكون فينا تملل وقلق ، واضطراب
واشمزاز ، نمثل بالجوارح دون القلوب ، وننقاد في الظاهر دون الباطن ،
كأولئك الذين وصفهم الآية ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس
ولا يذكرون الله إلا قليلا ، .. أو نجعل همنا في الجدل والمناقشة ، والبحث
والمناظرة ، فظهرت حكمة مشروعيته قبلناه على العين والرأس ، وما لم تظهر
حكمته رفضناه .. فإن ذلك إلحاد ومروق ، وعصيان وفسوق ، يتنافى مع العبودية
التي تستوجب الإذعان والخضوع ، والامثال والتسليم ، والانتقاد والتفويض ...
أما المنفذ الذي نصل منه إلى ذلك التكريم للنبي صلى الله عليه وسلم فتلك
الإضافات ، وإسناد الفعل إليه ، مع أنه واسطة العقد . . ولعل أبرز نواحي
الإعجاز هنا أن الحكمة على قصرها طوت تحتها معاني طويلة ، ولفت آدابا جمّة
وتلك الامثال نضربها للناس ، .



للشعر سلطان

قال الاديب الكبير صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه : دخلت على أبي العباس
القائد فأنشدته :

الله جرد للندى والباس	سيفا فقلده أبا العباس
ملك إذا استقبلت غرة وجهه	قبض الرجاء إليك روح الباس
وبه عليك من الحياء سكينه	وحبة تجمرى من الأنفاس
وإذا أحب الله يوما عبده	ألقى عليه حبة للناس

ثم سأله حاجة فيها بعض الغلط فتملكا على ، فأخذت مسحاة من بين يديه
فوقعت فيها على البديهة :

ما ضر عندك حاجتى ما مرها	عذرا إذا أعطيت نفسك قدرها
أنظر إلى عرض البلاد وطولها	أو لست أكرم أهلها وأبرها
حاشى لجودك أن يورع حاجتى	ثقتى بجودك سهلت لى وعرها
لا يجتنى حلو المحامد ما جسد	حتى يذوق من المطالب مرها

أعلام الأنهار

الشيخ علي الليثي

المتوفى سنة (١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م)

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي
المدرس بكلية اللغة العربية



مركز تحقيق كميوتير علوم إسلامي

شعره :

خلف الليثي ديوان شعر ضخماً لدى صهره الاستاذ محمد سعودي أفندي ،
الخبير ، ولكنه أبي أن يطبعه لعلم أهله وخاصته بأن الشاعر لعن من يقدم
على طبعه . ولعل الليثي فعل ذلك تخرجاً من نشر ما عسى أن يكون قد تورط فيه ؛
كشأن أكثر الشعراء ، من دعاية أو غلو في مديح أو ذم أو نحو ذلك ، فلقد كان
في الرجل تقية وورع ، فهو يخشى حسابه على ما نظم ، ولو كانت هذه الثروة الشعرية
لشاعر غيره ممن يغريهم المظهر والشهرة ، لجاز أن يحرص على طبع شعره وتدوينه
والمفاخرة به .

ولو تنبأ لنا الاطلاع على هذا الديوان والتفرس فيما حواه من شعر ،
وفيا بين دفتيه من قصائد نظمها في أغراض مختلفة ، وألوان متنوعة ؛ لاستطعنا
أن ندرس شعره دراسة بحث ونقص ؛ ولكن احتجاب ديوانه ألقى على شعره
ستاراً كثيفاً من الغموض والإبهام ، وجعل الحكم عليه مقروناً بالعناء والجهد ،
وذلك ما دفعنا دفعا إلى مراجعة الصحف القديمة والمجلات المعاصرة له ، وتبع

الكتب الأدبية المختلفة مما عساه أن يضم طرفاً من شعره ، وخبراً من خبره ، ونستطيع بعد أن تعبت أناملنا من التصفح والتقليب وبعد العثور على جمهرة من قصائده المتنوعة ؛ أن نحكم على شعره جملة بأنه في المنزلة الوسطى من منازل الشعراء (١) .

وكان القدر الأعظم من شعره في المدائح ؛ فلقد اصطفاه اسماعيل ، وأضفى عليه لقب شاعر الخديو ، ولازمه وناداه ، كما أدناه توفيق وأحله مكانة من نفسه ، وقد دعاه ذلك إلى أن ينظم فيهما مدائحه ملتصقاً لها شتى المناسبات ؛ آية على ولائه ، ودليلاً على وفائه ، كما مدح المصطفين لهذين الأميرين من ذى جاه أو شفاعة أو حظوة لديهما ، وكان الليث حريصاً في هذه المدائح وخاصة ما لإسماعيل وتوفيق على أن يحودها ويكسوها حلة من الروعة وجمال الشعر ، ولكنه على كل يدور فيها جميعاً مع تباین أسبابها على معانٍ متقاربة ، وطريقة متشابهة ، فهو يبدأ بالغزل متأنقاً في صوغه لينتقل منه إلى مدح الأمير حاشداً من معانيه وألوانه ما شاء له الأسلوب ، وما واثقه القريحة ، واستتبع مدحه الأميرين الذى هو ثمرة لصلته بهما وحد بهما عليه أن يقول مهنثاً ، أو مواسياً أو معزياً ، فان وفاءه الباعث على على الإطراء والمدح هو نفسه الدافع على قرض الشعر فى كل ما جل أو هان من مختلف المناسبات .

ولقد جهدت فيما تتبعته من الشعر كى أعثر على المنادمة فى شعره ، وأتبين أثر هذا الفن لأرى ما أبدع منه فى نظمه ، فلم يواتى منه شيء ، فلعلها كانت منادمة مجلس وسم يصورها حديثاً يرويه ، وقصة يسوقها ، ونسكته يرسلها ، ونادرة يفاكه بها ، وبديهة مواتية لا تستلزم الشعر أسلوباً ولا أداة .

نماذج من شعره

مما قاله فى عيد جلوس الخديو عباس الثانى :

خل الملام فقلبي ليس بالسالى	يا عاذلاً لج فى لومى لتضلالى
دعنى ووجدى وما ألقاه من وصب	أبيت أرمى الدياجى بئس الحال

ظننت لومك يثنى قلب ذى شجن مهبات لومك لم يخطر على بالي
أنا الوفي وقلبي ليس يشغله عما عليه انطوى تميمي عذالي
أرح فؤادك واحذر ما أكابده أما نظرت إلى سقمي وإعلاي
دمع يسيل وقلب ذاب من كمد وفكرة شتتها لوعة البال
عدتك حالي لا ذقت الهوى أبداً ولا رمتك اللوحي فيه بالقال
إلى أن قال :

قد قال لي القلب كم حملتني نصبا من الغرام وقد ضاعفت أثقالى
هلا التفت وألزمت البراع بما يخف عني به وجدى وبلبالي
فقلت يا قلب صادفت المراد فذا عيد الجلوس الخديو المفرد العالى
عباس مصر الذى ضاءت بغرته أوجاؤها وغدت روضاً لخلال
صفو النفوس بتشريف النفوس بدا كاليدى يعطى اثتناسا عند إهلال
فادخل بنا فى تهايبه بموسمه وإن تعاظم فاسلك نهج إجمال
ثم قال :

هذا الأبى الذى أمضت عزائه ما أوهن اللب من قول وأفعال
زند الشيبية يورى رأى مكتمل منه ويهذى لرشد عند تسأل
فيه لرائيه إنسان ومرحمة وكم لراجيه منه نور آمال

فهذه أبيات تبتدىء بالغزل على عادة الشعراء، ثم تنتقل إلى ذكر الممدوح بما
شاع المدح به، وما ألف نظم الإطراء فيه، وهى وإن كانت أقرب إلى التجويد،
فى نظمها وصوغها، لانهمل من روعة الشعر، والطابع الشخصى ما يسمو بصاحبها
إلى مصاف المجيدين :

وعما قاله فى ليلة عرس :

لله ليلاات أنس عن سنى سفرت وبالمراد إلى أسهى حمى وصلت

كانها ليلة القدر التي نزلت
سرت بحسن صفاتها مصر وازدهرت
فما رأى مثلها الراى فقد شرفت
دار بسدتها الالجاد وارده
إن شئت قل جنة أو جنة وجنى
نعم سويداك أو سود العيون بما
وارع المثاني وراع الغدليب بها
إلى أن يقول :

ولا أصرح بالداعى ولى أمل
فأهنا فهذا القران السعد أرخه
يشيده من حلى أوصافه كملت
شمس البهاء بمحمود الصفا اقترنت
١١٥١ ٢٠٢ ١٠٠ ٣٩ ٤٠٠

فهذه مظاهر للحسن والسرور، والآنس والبهجة حشدها الشاعر حشداً،
ونظمها بصورة تقليدية لا أرى فيها روحاً للشعر المذهب الرائع، على أنه غنى فيها
بالزخرف والطلاء، فأشار إلى الاقتباس في ليلة القدر التي نزلت فيها الملائكة،
وجنس بين جنة، و دجنى، و الغياث، و الغيث، و سويداك، و سواد
العيون، و دارع، و دراع، وبذل لذلك شيئاً من جهده وطلبه، ثم ختم أبيانه
بالتاريخ الذى فتن به معاصروه والسابقون عليهم، وحرص عليه هو أيضاً. ومن
ولوعه بالمحسنات البديعية، وتكلفها وسعيه لها ما قاله للشيخ الأنباري بنى ماوشى
به إليه :

نهئت أنى قيد ذكرت بحضرة
وعذلت أن لم أهد ساحة مجده
ولقد نبا بى عن سمو مقامه
فغدوت أدعو الله أن يرقى إلى
تسمو بكوكب عصره، الإنباى،
غرر التهانى عذلت من أنبا بى
عز المهابة وازدحام الباب
أسمى المعالى فى أعز جناب

كما يعز الدين منه بناصر وتقر عين الشافعي بمهاب
فيمثله الإسلام بظهر نوره وتقوم حجته على المراتب
لا زال شيخ المسلمين محجبا بمهابة الإعزاز والإرهاب
حتى يقول العلم : سدت مؤرخا بولي الأزهر شيخه ، الإنباي ،
سنة ١٣٠٤ ٤٨ ٢٤٤ ٩١٥ ٩٧

فقد كلف بالتجنيس في قوله ، الإنباي ، فأدارها غير مرة ، بما (نباها)
ووضعها موضع القلق ، كما شد الجناس في قوله ، بمهابة ، و ، الإرهاب ، وختم
بالتاريخ كدأبه .

ومن أبيانه الرقيقة ما قاله حين زارته سائحة أمريكية وهو في ضيعته ، بالصف ،
وزائرة زارت على غير موعد غريبة دار تلتحي كل مورد
تبدى لنا وقت الظهيرة نورها ونحن على روض زها بالتورد
من اللام لم يدخلن مصر لحاجة سوى رؤية الآثار في كل مشهد
لها في ، أمركا ، انتساب ودارها ، بيستن ، إذ تعزى لمسقط مولد
فجيت وقالت والمترجم بيننا : لنا فأذنوا نحظى بروضكم الندي
فقلنا ونور البشر أزهر بيننا : على الرحب والإقبال مشكورة اليد
ودارت أحاديث التساؤل بيننا فجاءت بدُر من حديث منضد
إلى أن قال :

عن البحر حدث إذ وردنا وقد غدا بصفو يصافينا فيا طيب ، ورد
سفيفتنا تعلو على ذلك السما بما حل فيها من شمس وفرقد^(١)
هناك مراد العين والسمع والهوى مع العفة العليا في كل مقصد
فقمنا وودعنا القلوب فهل درت بما نابنا عند الوداع المهد^(٢)

(١) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمال .

(٢) المهد : الميا .

النبي والشعر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد المسلول
المدرس في كلية اللغة العربية

قام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى ربه في أمة شديدة العناد
قوية البأس ، عرفت بالصلابة وقوة الشكيمة ، وغضب الخصومة ، وشدة العارضة
والحرص على ما ألفت ، والبقاء على ما اعتادت ، والتأدي في الباطل ، والإصرار على
ما هم فيه من عمى القلوب وظلام العقول ، كلما دعاهم إلى فضيلة كذبوا وجمعدوا ،
وكابروا وعاندوا ، وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ،
لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يأتى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل
منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً .

ولقد أنزل الله على رسوله القرآن المبين ، والعرب إذ ذاك أمراء البيان
وأعلام البلاغة ، واللسن المقاول ، الذين اكتملت فطرتهم ونضجت فصاحتهم ودق
إحساسهم الأدبي ، وامتسكوا ناصية اللغة امتلاكاً عجيباً ، ولكنهم رأوا طرازا من
البيان شق عليهم أن يجاروه ، ونحوا من الكلام عز عليهم أن يعارضوه ، فذهبت
بهم الظنون كل مذهب ، وتشعبت منهم الاوهام في كل بيداء ، وأخذتهم الحيرة في
حقيقته ، واستغرقهم التأمل في طبيعته ؛ قالوا : إنه سحر ساحر أو شعر شاعر أو كهانة
كاهن أو أساطير الأولين وذكريات الغابرين . ولكن الله أكذبهم في زعمهم
وخطأهم في ظنهم وسفهمهم في أوهامهم ، وسجل عليهم عجزهم عن إقامة حجة على
الرسول ، وقصورهم في التماس مطعن فيه ، بأنه أمى لا يقرأ الكتب ولا يخط باليمين
وما كنت تلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، إذا لارتاب المبطلون .

كذلك كان من تمام الحجة على قريش وكال البرهان وبالغ التأيد ، أن الله
تعالى صرف نبيه عن الشعر وقوله ، فلم يؤثر عنه من لدن طفولته ، ولم يعرف عنه

في شبابه أو نشأته أنه قال الشعر مستجيباً لخواج نفسه أو مناخها عن قومه أو مشاركا لشعرائهم فيما تهرر به طبائعهم أو تنتضح به ملكائهم، مع سمو فطرته وصفاء موهبته، ورسوخ هرقه في البلاغة .

وتلك حكمة جليلة ليس وراءها حكمة، وتدبير جميل لا يهينه إلا علام الغيوب، فإن قريشا قد اتهمته بالشعر ليوهنوا من حجته ويغضوا من دعوته ويقولوا لدى الناس من أهميته، حتى ينسبوا ما في القرآن من جمال النظم وسامي البلاغة وروعة الأسلوب وإشراق البيان إلى روعة الشعر وخيال الشعراء، أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون .

والله جل شأنه إذ يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم : وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إنما يدحض باطلهم ويسفه أحلامهم ويذكر بآرائهم فيما يظنون، وينفي كذلك عن الرسول ما يتعاطاه الشعراء وما يأخذون فيه من قول يستفز النفس أو انسياق وراء الخيال أو خضوع لنزوات النفس، مما يؤدي إلى كشف عرض أو هتك ستر أو استباحة حرمة؛ وذلك كله مما ينافي النبوة ولا يلائم ما للرسالة من وقار وهيبة واتجاه صادق إلى إصلاح القلوب وتهذيب اللسان.

ولهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يقول: لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر، ولم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله ثم لم أعد.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على أن يبعد عن ميدان الشعر ومنافسات الشعراء، ورغبته القوية أن ينأى بنفسه عن المعترك الذي يصلون فيه، وبالغ تحصيله لطبيعته المتوثبة الشفافة، لا ينشد الشعر؛ فإذا تمثل أو استشهد فإنه لا يقيم وزن البيت. وقد تعرض له حاجة إلى الإنشاد فآخذ في الإنشاد من البيت حتى إذا حاولت الطبيعة عنده أن تستقيم وتعتدل وتأخذ حظها من الرواية لوى بها عن قصدها وصرفها عن وجهتها وقدم أو أآخر في البيت حتى يحطم هيكل الشعر ويصدع كبريائه أنشد بيت طرفة بن العبد هكذا:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالآخبار

وصحته، ويأتيك بالآخبار من لم تزود.

وقال : «أصدق كلمة قالها لييد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل :
ولم يتم البيت :

وأشدد بيت العباس بن مرداس هكذا : أنجعل نهي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة . فقال الناس : بين عيينة والأقرع ، فأعادها النبي صلى الله عليه وسلم بين الأقرع وعيينة ، ولم يستقم له الوزن . وكثيرا ما كانت تذكره بعض الحادثات بيت من الشعر ، فلا ينشده ، وإنما يذكر به أصحابه أو يشير إليه .

حدث أن أصاب الناس جرب وامتنع نزول المطر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يسقيهم ، فصلى صلاة الاستسقاء ، ودعا الله ، فلم ترد إليه يداه حتى جادت السماء بماء منهمر . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : يرحم الله أبا طالب ، لو كان حيا لسره من ينشدنا قوله .
فأنشدوه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه نملال اليتامى عصمة للأرامل
ولما فتح الله على المسلمين مكة ، ورأى صلى الله عليه وسلم النساء يلطمن الخيل ويضربن وجوههن ، التفت إلى أبي بكر ، وقال : ماذا قال حسان ؟ فقال :
يا رسول الله إنه قال :

تظل جيادنا منطرات تلطمن بالخر النساء
فهذا واضح صريح في أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم ينشد الشعر أو يتم وزنه .
على أنهم اتفقوا على أن الرسول قد جرى على لسانه من الكلام ، ما عد موافقا لبحر من بحور الشعر وهو الرجز منهوك ومشطوره .
فالمنهوك كقولهم في رواية البراء أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم على بغلة بيضاء يوم أحد وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
والمشطور كقولهم صلى الله عليه وسلم في رواية جندب أنه دميت أصبعه فقال
هل أنت ألا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وهذا لا يقدح في عظمته من قول الشعر ومنعه منه ، إذ أن اللسان يجري عفوا بما يمكن أن يمد في حكم الموزون من غير قصد إلى الوزن ولا رغبة في إقامته أو اتجاه إلى سلكه في نظام الشعر .

وأما القرآن الكريم ، وقد نبي الله عنه الشعر وأكد لهم أنه ليس بقول شاعر ، قد جاءت فيه آيات اتفق لها الوزن ، ولكنه لم يقصد فيها ولم تطلب إقامته .

فما جاء فيه متفقا مع الوزن قوله جل شأنه : « لن تتأوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله تعالى : « وجفان كالجواب وقدور راسيات » ، فإنهما يوافقان الرمل . الآية الأولى من مجزوء المسبغ ، والثانية من مجزوء الصحيح . وقوله تعالى « من تركي فإنيما يتركي لنفسه » من مجزوء الخفيف . وقوله « ويخزهم وينصركم عليهم » ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، من الوافر .

وذلك وزن يحمي عرضا في الكلام من غير ارتعاد له أو احتشاد لإقامته ، وهو يتفق لكل متكلم . ثم الرجز الذي جرى به نص كلامه صلى الله عليه وسلم موافقا له ليس في حقيقته شعرا ، وإنما هو سلم ونميد للشعر ، ولم يجعله العرب من الشعر إلا أنه كان الأصل في اهتدائهم إلى الشعر . ثم أخذ فيه الشعراء بعد ذلك وأجروه مجرى القصيد فجعلته العادة شعرا . أما الحقيقة فهو وزن كأوزان السجع ، يستطيعه كل متكلم من غير كد ذهن ولا إغاث فكر ولا إجهاد طبيعة ، وهو مع ذلك كله لم يتفق للرسول صلى الله عليه وسلم فيه أكثر من بيت واحد ، ولم يمثل منه كذلك بأكثر من البيت الواحد كما إنشاده بيت أمية بن أبي الصلت :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

وإنما كان ذلك في الرجز خاصة دون جميع أوزان الشعر ، لما قدمنا ، ولأن الشطرين منه كالشطر الواحد في الوزن والقافية ، لا يبين أحدهما من الآخر وبخاصة في المشطور والمنهوك .

يقول الأستاذ الرافعي ، والذي عانا أنه صلى الله عليه وسلم لم يمنع إقامة وزن الشعر في إنشاده إلا لأنه منع . ، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه فطرته القوية ، فر في الإ بذلك لا محالة إلى القول والاتساع

والى أن يكون شاعرا ، ولو كان شاعرا للذهب مذاهب العرب التى تبعت عليها طبيعة أرضهم ، ولتكلف لها ونافس فيها ، ثم لجاراهم فى ذلك إلى غايته حتى لا يكون دونهم فيما تستوقد له الحمية ، وما هو من طبع المنافسة والمغالبة . وهذا أمر يدفع بعضه إلى بعض ، ثم لا يكون من جملة إلا أن ينصرف عن الدعوة وعما هو أذكى بالنبوة وأشبه بفضائل القرآن ، ولذلك قال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » .

على أنا نحب هنا أن نقرر أمراً لا بد من تقريره وإبائه حتى لا يلتبس علينا أمر بأمر ، ولا يشتبه صبح بليل : ذلك أن امتناع النبي صلى الله عليه وسلم ، أو منعه من الشعر ، لم يكن تهجيناً لشأبه ، ولا تحقيراً لأمره ، ولا إضراراً برسالته ، وإنما لما بينا سابقاً من الأسرار ، وفيما عدا ذلك مدح النبي صلى الله عليه وسلم الشعر وقال : « إن من الشعر لحكمة » ، وقد سمعناه وأثاب عليه ، ورخص فى سماعه وروايته : بل كان له شعراء يناخون عن دعوته ويذودون عن حوضه ويحامون عن رسالته ، وهو القائل للأَنْصار : ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم . وكان يقول لحسان ، وهو يهجو المشركين : « قل وروح القدس معك ، فإن شعرك عليهم أشد من وقع الحسام فى غبش الظلام » . ولقد جاءه كعب بن زهير بعد أن أساء واستعطفه بقصيدته « بانت سعاد ، التى يقول فيها :

نبئت أن رسول الله أوعى دنى والعفو عند رسول الله مأمول
فعفا عنه وخلع عليه برده .

وكان يستمع إلى الخنساء ويستزيدها من شعرها بقوله : هيه يا خنساء .
وسمع شعر قتيلة أخت النضر بن الحارث الذى قتله : سمع قولها :

ما كان ضرك لو منفت وربما من الفتى وهو المغيظ المحقق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال : لو سمعت هذا الشعر قبله
وسلم يعرف للشعر حقه ، ويقدر له
غاية شريفة .

الصنغ البديعي في مدرسة السكاكي

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أحمد موسى
المدرس بكلية اللغة العربية

صلة البديع بالبلاغة عند السكاكي :

للسكاكي صنيع لم يسبق إليه في تاريخ التأليف من حيث إقامة الحواجز الفاصلة بين العلوم التي اشتمل عليها المفتاح ، فقد عرض للفروق بين هذه العلوم جميعاً في مقدمة كتابه ، قال بعد أن أشار إلى اشتغال الكتاب على ثلاثة أقسام : « والذي اقتضى عندي هذا هو أن الغرض الاقوم من علم الادب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب ، وأردت أن أحصل هذا الغرض ، وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها ، لا جرم أنا حاولنا أن نتلو عليك في أربعة الانواع مذيلة بأنواع آخر بما لا بد من معرفته في غرضك لتقف عليه ، ثم الاستعمال بيدك ، وإنما أغنت هذه ؛ لأن مشارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة : المفرد ، والتأليف ، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له ، وهذه الانواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم . فعلمنا الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف ، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير .

« ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو حكم المفرد والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه ، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للبعنى متأخر عن نفس التأليف ، لا جرم أنا قدمنا البعض على البعض على هذا الوجه وضعا لتؤثر ترتيباً استحققه طبعاً (١) ، على هذا النحو من الضبط ، وعلى تلك الطريقة من التمييز والفصل ، مضى السكاكي في تأليفه ، فاستحلى مذاقها المتأخرون حتى كان ما كان مما أنت به خير !



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى

المحسنات البديعية لا تندرج ضمن مسائل العلين ؛ ولما كان تعريفه البلاغة بقوله :
 « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب
 حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والسكناية على وجهها ، شاملاً لهذه المحسنات
 جعلها متضافرة مع مسائل العلين في البلوغ بالكلام إلى أعلى درجات التحسين
 والتزيين ، فكأن السكاكي يشير بهذا الصنيع إلى أن من هذه المحسنات ما يمكن
 رجوعه إلى علم المعاني كالطباق ونحوه ، على أنه قسم آخر منه راجع إلى الجملة من
 حيث هي جملة ، وليس راجعاً إلى أجزائها كما هو الشأن في جمهور مباحث المعاني ،
 ومنها ما يمكن أن يسلك في عقد البيان كالمشاكل ونحوها ، وإن كانت هناك
 فوارق يسيرة ليست في الصميم من السهل لإزالتها أو غرض النظر عنها .

ولقائل أن يقول : إن السكاكي بعد أن انتهى من على المعاني والبيان ،
 عرض لتعريف البلاغة والفصاحة ، وهاتان من قبيل المقدمات لهذين العلين ،
 ولا ينبغي عنهما هذا الاسم تأخير السكاكي لهما ووضعهما في ذيلهما ، ثم ضم إليهما
 هذه المحسنات كما ترى ، وهذا الصنيع يشير إلى أن المحسنات البديعية من قبيل
 المقدمات التي لا بد منها لطالب على المعاني والبيان ، فهلاً اعتبرتها كذلك ؟

وأنا أقول : إن هذا احتمال قريب الخطور ، سهل المأخذ من صنيع السكاكي ،
 ولا مانع عندي من جعلها من قبيل المقدمات التي لا بد منها في البلاغة ،
 أو توزيعها على مسائل العلين ، ذلك ما سنكشف عنه في القسم الثاني من هذا
 البحث بمشيئة الله تعالى .

هذا وقد لقي كتاب المفتاح - ولا سيما القسم الثالث منه - عناية لم يسبقه
 إليها كتاب من كتب البلاغة ؛ قال ابن خلدون في أثناء حديثه عن علم البيان :
 « ثم لم تزل^(١) مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكي زبدته ، وهذب
 مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المسمى
 بالمفتاح في النحو والتعريف والبيان^(٢) فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذ

[١] مقدمة ابن خلدون ٥٥٢ :

[٢] المراد به ما يشمل المعاني والبيان على بعض الاصطلاحات .

المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد : كما فعله السكاكي في كتاب « التبيين » ، وابن مالك في كتاب « المصباح » ، وجلال الدين القزويني في كتاب « الإيضاح » ، والتلخيص ، وهو أصغر حجماً من الإيضاح ، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره .

وكما كان السكاكي أول الجناة المسرفين على علم البلاغة بإخضاعه للعلوم العقلية ، فأضاع بهجته ، وأخلق ديباجته ، كان أول الجناة عليه بإلجائه إلى مضائق الاختصار ، ووسمه بميم التعمية والإلغاز ؛ ذلك أنه عمد إلى القسم الثالث فاختصره في كتاب دعاء « التبيان » ، ففتح بذلك باب الاختصار لمن بعده ؛ كما فتح باب التحشية كما أسلفنا في الكلمة السابقة ، حتى وصلت البلاغة إلى هذا الحد الذي يثير الضحك ، ويبعث على التندر . ومرد ذلك كله إلى من أوردها تلك الموارد وهو السكاكي .

وإذا كان القسم الثالث قد استنفد هذه الجهود في الاختصار ، فقد استنفد أخرى في نظمه ، وأخرى في شرحه . وقد أحصى صاحب كشف الظنون عدداً وافراً من المؤلفات يمثل هذه الطوائف الثلاث .

وبعد : فبالقسم الثالث من المفتاح تنقطع الصلة بين المتقدمين الذين غلبت عليهم الصبغة الأدبية ، وبين المتأخرين الذين غلبت عليهم الصبغة النظرية ، وتمضى البلاغة منقلة بأعباء المنطق والفلسفة ، والكلام . وفي ذيلها البديع في طريق الاختصار الخلل الذي لا يشبع نهمة ولا يبل أواماً ولا يربى ذوقاً ، أو في طريق الشرح السخيف ، أو التحشية الرديئة ، أو التقرير الممل ، وما إلى ذلك مما أبعدها عن موارد الصفو ، وأوردها مواطن الكدر ، وبقي الأمر كذلك منذ أوائل القرن السابع الهجري إلى يومنا هذا ، حتى مرنت الأذهان على العجمة ، وأصبح من آية الخدق والتمهر احراز قصب السبق في تحصيل تلك الطرائق . فإن صاحب صائح في رواد هذه الموارد المقيم : أن ارجعوا بالبلاغة إلى عهود الصفو والإشراق ، وجانبوا عهود الكدر والإظلام ؛ حتى تتربى أذواقكم وتضج سلائقكم ، رموه بالافن وحكموا عليه بالزيغ وسلكوه في نظام الملاحدة . نقول ذلك والشواهد على ما نقول ماثلة حاضرة .

موضوع علم الأخلاق

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يقول « بارتلي سانهيلر » ، في مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو طاليس :
« ومن النادر أن يقع إجماع الآراء على طريقة بسط مذهب بعينه ، مهما أجيبت
ومهما بلغت من الحق ، ولكن من الأفعال ما هو مقرر عليه عند جميع الناس ،
وبين أن هذا الإقرار العام سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادئ مسلمة عند الجميع ،
وتقع على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها في أغلب الأحيان .

« فالبحت عن هذه المبادئ وترتيبها واستنباطها ، وتبين كل حقيقتها وكل
أهميتها العملية ، وبيان الواجبات التي توجبها على الإنسان بجميع النتائج التي
ترتب عليها . هذا هو موضوع علم الأخلاق ، انتهى كلامه .

فما هي هذه المبادئ العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتي تقع أفعال
الإنسان على مقتضاها ، من حيث لا يشعر الفاعل لها في غالب الأحيان ، والتي
يدور عليها علم الأخلاق ؟

أهي السنن الكونية الطبيعية ؛ كسنن الجاذبية ، والنور ، والحرارة ؟

كلا ، فهذه السنن الطبيعية ، وإن كانت عامة ثابتة ، ومسلمة عند جميع الناس ،
إلا أنها خارجة عن إرادتنا ، فليس في وسع إنسان أن يبدل الصيف بالشتاء ،
ولا أن يمنع الشمس من الشروق ، ولا الحديد من أن يتمدد بالحرارة ، ولا أن
يحمل التفاحة حين تنفصل من الشجرة ترتفع إلى أعلى بدل أن تسقط إلى أسفل ،
فما هي إذا ؟

أهي هذه السنن الاجتماعية التي فرضتها على الدولة لمصلحة المواطنين ، تنظم بها
علاقات الناس المشتركة المتبادلة بينهم في هذه الحياة ؟

كثلاً . فهذه السنن وإن تعلقت لإرادتنا بها ، إلا أنها غير عامة ولا ثابتة ، بل هي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وهي في بلاد غيرها في الأخرى ، وهي اليوم غيرها بالأمس .

إذاً ، فما هي هذه المبادئ العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتي تقع أفعالنا على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها في أغلب الأحيان ؟
هذه المبادئ التي يدور عليها علم الاخلاق هي شريعة الحق والواجب ، وهي شريعة عامة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان . فالحق واحد لا يختلف فيه اثنان ، وإن حصل خلاف بين الناس ، فإنما هو خلاف في فهم الحق لا في الحق ذاته ، تبعاً لاختلاف الناس في العقلية والذكاء ، والظروف المحيطة بهم في هذه الحياة ، ومعنى كونها عامة ، أنها موجودة في كل الضمائر ، وإن اختلفت قوة وضعفاً .

ومعنى كونها ثابتة : أنها غير متغيرة ، بل هي صالحة لكل زمان ومكان . وهذا المبدأ ، أو هذه الشريعة ، أو هذا القانون الأخلاقي ليس من وضعنا بل هو قانون يناجي عقولنا ولكنه ليس إيماناً . ونحن لا نستطيع أن نذكره ، ولا أن نلزمه الصمت ، ولكنه نستطيع أن نخالف نصائحه القوية الحق ما دامت لنا إرادة حرة . ومن هنا نشأت مسؤولية الإنسان أمام القدير الصانع لهذا القانون .

ولما كانت اللغة سابقة على علم النحو ، كذلك موضوع علم الاخلاق كان قبل أن يبحث فيه علم الاخلاق ، جاء هذا العلم فاجتهد في استنباط قواعد يهتدى بها الإنسان في أفعاله وأقواله . وأول من حاول ذلك هو سقراط^(١) الذي يعتبره

[١] ولد سقراط في أثينا حول سنة ٤٧٠ ق م من أب يحترف صناعة النمايل وأم قابلة . احترف حرفة أبيه ، ولبت يزاولها حيناً قصيراً قبل إنه صنع خلاله مجموعة ضئيلة من النمايل عرضت فيما بعد في الأكروبوليس ، بأثينا ثم ترك هذه المهنة وتخصص للفلسفة التي اعتبرها رسالته في الحياة وكان يعيش في أثينا ، ولبت فيها ولم يفادها قط إلا حين اضطرت ظروف الحياة أن يخرط في سلك الجيش ، وظل مشتغلاً بالفلسفة حتى أنهم في سن السبعين بانكار آلهة اليونان والدعوة إلى آلهة جديدة وأنه يفسد عقول الشباب لحكم عليه بالأعدام فأعدم . وكان يعلن أنه لا يعرف شيئاً . وليس حكماً ولكنه فيلسوف يحب للحكمة ، وكثيراً ما كان يقول : « أنا أعرف شيئاً واحداً وهو أني لا أعرف شيئاً » .

الجميع واضح علم الأخلاق، فحاول أن يكشف لجيله ما حاول جميع الأخلاقيين من بعده أن يكشفوه لأجيالهم، أعنى: المبادئ الخلقية العامة المسلم بصحتها.

فعلم الأخلاق إذاً يوضح لنا الحياة الأخلاقية التي تحياها الروح في عالمها. ولقد وصف أفلاطون حياة الروح في جهادها قال: «فلتصور أن كل واحد منا هو ما كينة حية خارجة من يد الآلهة، فالشهوات التي نحسها هي كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل إلى ناحيته، وبتعاكس حركاتها تجذبنا إلى أعمال متضادة.

وهذا هو ما يقرر الفرق بين الفضيلة والرذيلة. ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا ألا نطاول إلا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ما عداه من الخيوط الأخرى، ذلك هو خيط الذهب المقدس: ضبط العقل الذي هو القانون العام للممالك وللأشخاص. ينبغي أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو محل الحكمة، وأنه مكاف بأن يسهر على النفس بتمامها. ولا ينبغي البتة أن يصفى المرء في نفسه إلا إلى صوت العقل، لأن صوت العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب أنفسنا.

ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمى بالمعارف، أو بالثروة، أو بالجاء والسلطان ذلك ليس إلا نقصا فيما يجب من تشريف ما في نفسه من الجهة القدسية، وتفریطا منه في إكرام نفسه. فإن إكرامها الحقيقي ينحصر في الدأب على تنمية الفضيلة فيها، وحمايتها من الكبرياء والذات، ومن الترف الذي يجعلها تخب عن احتمال المشقات الضرورية، ومن الجزع حتى عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجميل: فإن الجميل لا ينبغي أن يؤثر على الخير، بل يلزم أن يقال: إن كل ما على سطح الأرض وما في باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة، وإن المرء إذا لم يقصر تشبته على الخير وحده بكل قواه، كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسي موارد العار والاحتقار.

وحيث إن الحياة الأخلاقية تنحصر في الدأب على تنمية الفضيلة، وإن الإنسان يستطيع أن يخالف أوامر العقل المستقيم ما دامت له إرادة حرة، فموضوع علم الأخلاق إذاً هو أفعال الإنسان الإرادية أو الأفعال التي لم تتعلق إرادة الإنسان بها، ولكنها نشأت عن سوء التقدير كن محفر حفرة في الطريق وينسى أن يضع عليها علامة تحذر الناس من الخطر، فإنه مسئول عما ينجم عنها من أذى. يبحث

علم الأخلاق في هذه الأعمال وما يتصل ويترتب عليها من ثواب أو عقاب، فأعمال الإنسان كلها، عمومية كانت أو خصوصية تدخل في دائرة علم الأخلاق مادامت له إرادة حرة ولم يسيء التقدير في شيء؛ ولهذا لا يسأل الإنسان عن جماله أو بشاعته أو ذكائه أو غباوته؛ كما لا يسأل عن فعل ليس له فيه اختيار ومن هنا نفهم الحكمة في أن الشريعة الإسلامية لا تسأل الصبي غير المميز ولا المجنون لرفع التكليف عنهما ولا يكاف الله نفساً إلا وسعها .

وإذا كان علم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعاً هو أعمال الإنسان الإرادية وما يتصل بها، لا الأعمال التي لم تتعلق إرادة الإنسان بها ولكنها نشأت من سوء التقدير، فهل يتخذ لنفسه أيضاً من موضوعاته وساوس النفس على معنى أن الإنسان إذا وقع في نفسه شيء ولم يعمل به جوارحه فهل يحاسب عليه أو لا؟

اتفق العلماء على أن الأمور التي تخطر بالبال بما يكرهها الإنسان ولا يمكنه إزالتها عن النفس لا يؤخذ بها، لأنها تجري مجرى تكليف ما لا يطاق . وأما الخواطر التي يوطن الإنسان نفسه عليها، ويعزم على إدخالها في الوجود فقد قيل : إنه يؤخذ بها لقوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، وكما يؤاخذ باعتقاد الكفر والبدع وأنه من أفعال القلوب . وقيل : إن كل ما كان في القلب مما لا يدخل في العمل فإنه محل التقدير ، لما روى أنه صلوات الله عليه قال بعد نزول قوله : « لا يكاف الله نفساً إلا وسعها » : إن الله تجاوز لآمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا .

نعم ظاهر قول الكتاب العزيز : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » ، ظاهره يدل على أن الإنسان يسأل عما يقع في نفسه ولم يعمل به جوارحه . ومن يرى هذا الظاهر يقول : بأن هذه الآية قد نسخت بقوله : « لا يكاف الله نفساً إلا وسعها » ، ومن لا يراه يفسر الإبداء بإظهار العمل ، والإخفاء بعمله خفية ، وعلى ذلك فلا حاجة إلى القول بالنسخ .

وبعد ، فيرى بعض علماء الأخلاق أن سرعة أهل هذا العصر في هدم الأخلاق أكبر من سرعتهم في تحصيلها ، وإذا كان الأمر كذلك فأنجع دواء لذلك هو ضبط النفس ، فضبط النفس معناه ثبات الأخلاق وتمسكها .

هَيَّا لِنِسَاءِ الْمَرْءِ فِي الْبَرِّ وَالنَّكِاحِ

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المنعم أبو سعيد

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعو به إلى
نكاحها فليفعل . قال جابر : فخطبت جارية فكنت أنجباً لها ، حتى
رايت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها . رواه أحمد وأبو داود .

عم البلاد ثم مستطير ، وداء خطير نفشى بيننا ، وملا السهل والحزن ، حتى
شمل الناس جميعاً إلا من عصم الله ، فلا تكاد تجد مكاناً يئامى عن هذا الوباء ،
ولا بلداً ينجو منه ؛ ذلك ما يدعو به بالخاطبة ، وهى امرأة اتخذت لها من
الترويح لمن يريد الزواج مهنة ، ومن الجمع بين الشبان والشابات باسم الخطبة حرفة ،
نظير أجر معين من الطرفين ، وما يغدقانه عليها من هدايا وتحف ، مع أنه كان
جديراً ألا يوثق بما تبديه من خبر ، ولا بما تدعيه من معرفة ، وما تختزعه من
أوصاف ، وما تحيكه من أباطيل ، فإنها لا ترعى في ذلك مصلحة حقة ، ولا ترقب
ضميراً ، ولا يهمها غير ما تدره عليها هذه الحرفة من ربح ، أو ما تجنيه من
ورائها من أجر .

فكل فتاة عندها كريمة المحتد ، سليمة المجد ، ريبة الشرف ، عنها يؤخذ الخلق
الكريم ، والادب القويم ، وعندها تغض العيون ، وتخشع الأبصار لإجلالها
وهيئة ، بل إن اللسان ليعجز عن أن يعبر عما حوته من جمال ، وما اشتملت عليه
من محاسن الشيم ، وجميل الصفات ؛ وكل فتى عندها إليه تنتهى المروءة والكرم ،
والشجاعة والعزة والرجولة والشهامة ، والإباءة والشيم ، وإنه ليعمل أخلاق

الملائكة ، وطهارة القديسين ، وإنه لصفوة الخلق ونادرة الفلك ، هذا حديثها لكل خاطب وخاطبة ، وما صدقت في الأولى ، ولقد كذبت في الثانية .

فإذا وقعت الواقعة ، وتمكشف الأمر أو الخطب ، وبدت الحقيقة لذى عينين واضحة جلية ، لا زيف عليها ولا غبار حولها من زخرف القول ونسج الخيال ، هنا يستبين كذب ما اختلقته من صفات ، وما اخترعته من نعوت ومميزات ، وما وقر في الاسماع من الأمانى العذاب ، وما استقر في الأفئدة والقلوب من حلل الآمال ومعسول الأحلام .

هذه الخاطبة التى لا خلاق يزجرها ، ولا دين يردعها ، إنما تغرر إشبابنا وتلحق أشد الضرر بفتياتنا ، وتمهد بذلك لبناء أسرة تموت في مهدها ، وتحفر بيدها قبرها ، وتبنى لحدها ، مخلفة وراءها المشاكل والإحزن والضغائن والاحقاد ، تاركة ثمرة هذا الزواج تعج بهم الشوارع والطرق حفاة عراة ، يتداخلون كخراف القطيع إذا عصفت بها الريح أو قسى البرد .

وكثيرا ما تتخذ من بيتها مكان لقاء ، وعش غرام ووكر هيام ومهد فتنة ؛ حيث يلتقى الخطبان ، ويتردد المحبان ، وتتناجى ظامئة وعطشان : كريمة العنصر وابن المجد المؤئل ، وعندئذ كم تقع من مآسى وتحدث من فواجع تفضح الأسر ، وتهتك الأعراض ، وتمزق الحرمات .

إن الويل أشنع الويل لمن يسمح لمثل هذه المحترفة أن تدخل بيته ؛ فإنها هادمته لا محالة بما تشيعه فيه من فساد ، وما تجره عليه من أحداث ونكبات ، وها نحن أولاء نرى أنه ما من زواج تم على هذه الطريقة إلا وكانت نهايته المحتومة الطلاق أو الفراق ؛ ذلك أنه لم يقم على أسس سليمة ، ومعرفة تامة ووافق ووئام ، وتكافؤ بين الزوجين من الناحية الخلقية والاجتماعية والمادية والمعنوية .

وهكذا كل بناء يقوم على غير ما شرع الله ، فإن مآله الزوال السريع ، والبوار ولو بعد حين ، وإنما بهذا لا أعمى إلى الزجين لحسب ، وإنما تسىء إلى الأمة كافة وتهدم بناءها ، وتشر نظامها ، وتنشر فيها أقيع الأمراض الاجتماعية ،

وأشدها فسكا ، وأمضا إيلاما ؛ لأنها من غير شك ولا ريب لا تقترب جناية ضد فرد أو أمرة ، وإنما تقع جنايتها على الأمة والوطن ، وما كان أغنانا أن تقع فريسة لامثال هؤلاء المحترقات المضلات ؛ فإن الإسلام دين السماحة والحرية والمرونة ، قد بين السبيل القويم والطريق المستقيم ، وما فرط في شيء ، ولا أغفل أمرا ، فإنه إذ يجيز لك أن تبعث من تثق بخبرها ، ليستطلع ما هنالك مما لم تكن تعلمه ، وما قد تكون عليه المخطوبة من جمال أو دمامة أو نحو ذلك ؛ روى أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أم سليم إلى امرأة فقال : أنظري إلى عرقوبها وشئ معاطفها (١) — وفي رواية — وشئ عوارضها — يبيح أن يرى الخاطب من ألقى الله في قلبه أن يخطبها ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الانصار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الانصار شيئا (٢) ؛ أخرجه مسلم في صحيحه .

وروى عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه أنه خطب امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما (٣) . رواه الخمسة إلا أبا داود .

وروى عن موسى بن عبد الله عن أبي حميد أو حميدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر منها ، إذا كان إنما ينظر إليها لخطبة ، وإن كانت لا تعلم .

فقد دلت هذه الآثار دلالة واضحة على أنه يندب تقديم النظر إلى من يريد الإنسان نكاحها وهو قول جماهير العلماء ، والمفهوم أن النظر إليها إنما يكون بحضور محرم منها ، وإلا فالخلوة بالاجنبية محظورة ومحرمه ، كما أن النظر إليها محظور كذلك إلا في مثل هذه الحالة ؛ لما ورد فيها مما ذكرناه من أحاديث .

(١) المعاطف ناحيتا العنق ، والعوارض الأسنان التي في عرض الفم وهي ما بين الشبا والأضراس واحدها عارض والمراد اختصار رائحة السكبة .

(٢) قيل عشم وقبل صفر .

(٣) أي تحصل الموافقة والملازمة بينكما .

والقدر الذي ينظر إليه الوجه والكفان؛ لانه برؤية الوجه يستدل على الجمال أو صده ، وباليدين على خصوبة البدن أو عدمها . وقال الأوزاعي : ينظر إلى مواضع اللحم . والحديث مطلق فينظر إلى ما يحصل له المقصود بالنظر إليه ، ويدل على فهم الصحابة لذلك ما رواه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور : أن عمر خطب إلى على ابنته أم كلثوم فذكر له صغرها فقال : أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأةك فأرسل بها إليه ، فكشف عن ساقها ، فقالت : « لولا إنك أمير المؤمنين لصككت عينك »^(١) .

ولا يشترط رضا المرأة بذلك النظر ، بل له أن يفعل ذلك على غفلة منها كما فعله جابر ، فكنت أنتخباً لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها ، قال أصحاب الشافعي : ينبغي أن يكون نظره إليها قبل الخطبة حتى إن كرمها تركها من غير إيذاء بخلافه بعد الخطبة ، ويثبت مثل هذا الحكم للمرأة فإن لها أن تنظر إلى خاطبها ؛ فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها .

هذا هو موقف الإسلام من هذه المسألة الشائكة ، وتلك تعاليم الرشيدة ، وسننه الواضحة ترسم السبل الصحيحة لاختيار الزوجة التي تتناسب مع الزوج من شتى نواحيها ، ثم تمنح هذا الحق نفسه للزوجة حتى تقوم الحياة بينهما على أتم وفاق وأهدى سبيل لا إفراط ولا تفريط ؛ فهو يشخص الداء ويمنح الدواء ، أما ما نحن عليه اليوم ، أو ما عليه أغلب الناس من ترك الأمر في مثل هذه المسألة الخطيرة إلى رأى امرأة تاجرة ، أو لعلها فاجرة ، أو أن يترك الشاب والشابة يذهبان أنى يشاءان بحجة الخطبة والاختيار — فهو عبث واضطراب وإنباع لخطوات الشيطان وإغصاب لله وخروج على سنة رسول الله ، هذا هو الهدى ، وماذا بعد الهدى غير الضلال .

تزيين اورشليم

للأستاذ تاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب والصحافة

تعاث مدينة القدس الآن أزمة حادة : إذ يحاول اليهود اغتصابها من العرب لتكون عاصمة لدولتهم الزائلة ، وسبق لهم أن سلطوا عليها مدافعهم وبيرانهم ، فأصلوها من عدوانهم ألواناً ، وليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ ، فان القدس [أو اورشليم] طالما قاست من نير تعصبهم . وهذه صورة قديمة أهدبها لجيفنا الباسل

نحن الآن في العام السادس والستين الميلادي ، وقد انقضى على رفع المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — حوالي ست وثلاثون عاماً ، قد تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً ، ومسرح الحوادث هي أرض فلسطين ، تلك الأرض الدامية التي شهدت منذ فجر التاريخ أروع الحوادث وأمرها ، وأملها دماً ، وأكثرها قسوة ، ومكاننا بالتحديد هو اورشليم أو بيت المقدس .

كان الرومان — إذ ذاك — هم سادة العالم ، وهم بالتالي سادة بلاد الشام وحكامها ، وكان سكان فلسطين من اليهود — وهم قوم متعصبون لا يقبلون نظاماً — قد ثاروا في اورشليم وأخرجوا منها حاميتها الرومانية المكونة من الفيالق العاشر ، ورجاله من مضايق صقلية ، امتازوا بالشجاعة وعرفوا بالجسارة . ورأى الإمبراطور أن يلحق هؤلاء الحق درساً يرد إليهم عقولهم ، ويكون عبرة لغيرهم من المحكومين ، فجهز جيشاً أتمر عليه فسباشيان [ومعه ابنه طيطس] ، فاندحر على فلسطين كالسيل العرم ، يتود جيشاً من أقوى الجيوش التي أعدها الرومان .

(٥) عن ٥ هـ ف . مورنون : خطي المسيح : الطبعة الثالثة عشر - نيويورك ١٩٤٥ : من

ص ٢٤ - ٢٨ ، الفصل السادس من الباب الأول .

وكانت أول معركة خاضها عند الجليل ، ، التي تطل على بحيرة ساحرة المنظر ، فأحال مياهها الزرقاء الصافية ، حراء قانية من كثرة ما سكب فيها من دماء اليهود ، الذين ترددت صيحاتهم وأناتهم على سفوح التلال وهم يولون الأدبار ، أو يسقطون صرعى الحراب وقتلى السيوف ، على هذه السفوح التي طالما استمعت إلى خطب المسيح وأقواله . وأمر الرومان من اليهود ستة آلاف من خيرة شبابهم أرسلوهم عبيدا جثيا تحت أقدام قيصر .

وتطورت الحوادث — آتت — في روما نفسها ، فقتل الإمبراطور رمبرون ، واثنان غيره ، ثم نودي بقائدنا فسباشيان إمبراطورا في قيصرية ، فترك فلسطين متجها نحو روما ، تاركا وراءه ابنه طيطس ليضطلع بمهمة إخضاع اليهود وإذلالهم .

كان طيطس في الثلاثين من عمره حينما وقف - سنة سبعمين ميلادية - أمام أسوار اورشليم على رأس جيش يتراوح عدده بين ستين وثمانين ألفا من الجنود الأشداء ، وبدأت المدينة تقاسى أهوال الحصار ، وتعانى في الوقت ذاته هولا أكبر ، دو هول الحرب الأهلية ؛ فقد احتل المتعصبون والمتطرفون ورجال العصابات من اليهود بعض أحياء المدينة ، وأخذوا يشنون هجمات وحشية على أحيائها الأخرى ، حتى جرت الدماء في الطرقات ، ولم يكن في المدينة غير اليهود ، فإن المسيحيين ، وقد علموا بنبوء نبيهم قبل أربعين عاما هجروا اورشليم ، إلى إحدى ضواحي الجليل ، كانت تدعى ديبلا ، ، وهي الآن خربة الفحل ، .

وصمد اليهود للحصار ، ورفضوا الإذعان ، تحت إرهاب المتعصبين منهم ، وسرت المجاعة فيهم سريان النار في الهشيم ، ففاسوا منها أهوالا ، وأخذوا يقذفون بالثقات بمن ماتوا جوعا من فوق أسوار المدينة حتى ملئوا ، فكسدوا الجثث في القاعات وداخل المنازل الكبيرة ، وتسفل كثيرون خلال الأسوار في ظلام الليل ، فكان الرومان يصلبونهم ، بمعدل خمسمائة شخص في اليوم حتى ندرت الأخشاب ، وبدأت التلال موحشة من منظر الصليبان الخشبية المحملة بالجثث .

وأتمر الجوع في القدس ، فكان اليهود يخرجون ، متسللين على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة ، تسبقهم الشائعات بأنهم ابتلعوا ذهبهم في بطونهم —

وكانما ابتلعوا لعنة وعذابا - فكان الجنود يتربصون لهم ، ويتصيدونهم في الظلام يشقون بطونهم ابتغاء الذهب ، فقتلوا في ليلة واحدة ، بهذه الطريقة البشعة الفين ، وهال الأمر القائد - فقضى بالموت على كل من ثبت أدايته بمثل هذه الجريمة ، وعلى الرغم من ذلك ، ظل الجنود يمارسون هذه الهواية بحثاً عن الذهب في أحشاء اليهود .

وتغيرت معالم المكان وتبدلت ، حتى كتب جوزيفوس ، - المؤرخ اليهودي المعروف - وكان أسيراً لدى الرومان ، يقول : لم يكن أى أجنبي من - رأوا يهودية أو غيرها من ضواحي المدينة الجميلة الرائعة - لم يكن يستطيع إلا أن ينوح ويبكى حزناً لما أصابها من تغيير . فإن الحرب قد أزالت كل معالم الجمال وأحالتها صعيداً زلقاً ، بل إن أى فرد رأى المكان من قبل ، لم يكن ليعرفه الآن بعد ما حل به من أمر .

وبلغ الجوع بالسكان ذروته ، فصار الآب يختطف طعام أطفاله ، وسارت امرأة تملك مليوناً من الدينارات تلتقط حبات القمح المتناثرة في الطرق . وتخاصم الأصدقاء متقاتلين على ما قد يوجد من فئات ، وأخذ الناس يجمعون أى شيء - أى شيء يجدونه - فيمضغونه ، إسكاتاً لصراخ إمعانهم .

وبروى جوزيفوس ، قصة مريضة عن أم ذبحت وليدها ثم جعلت من لحمه شواء أكلت نصفه ، وخبأت النصف الآخر ، ولما أتى الدهماء على رائحة الشواء ، وعلموا بحقيقة الأمر ، خرجوا مسرعين ترتعد أطرافهم هلعاً وجزعاً من ذلك الهول الشديد .

واستنفذ طيطس جميع حيله ليحمل اليهود على التسليم ، فقد ركبوا رموسهم ، ولم يزدحم الجوع والحرمان والفوضى إلا عناداً ، أرسل إليهم رسلة يطلبون إليهم الإذعان فأبوا ، فجمع القمح وأنواع الطعام ، ووضعها على مرأى منهم ، إمعاناً في تعذيبهم النفسي ، ثم أجرى عرضاً لجيشه ، وقد ارتدى الجنود أغفر الحلال وأزهى الثياب ، وحملوا على سواعدهم القوية خير أسلحتهم ، وارتقى اليهود أسوار المدينة يشاهدون العرض في خوف ورعب ، ولكنهم لم يذعنوا ، ولم ير طيطس بدا من أن يستأنف هجومه .

وشق الرومان بخيلهم ورجلهم الطريق فاحتلوا قلعة أنطونيا ، وكانت تقع بجانب القاعة التي سلم فيها ، ييلاطس ، المسيح إلى قضائه .

ثم تابع الرومان هجومهم ، ودار القتال حول المعبد ، وتساقط اليهود قتلى ، ولكنهم لم ينضوا السلاح إيماناً منهم بأن جيوفاء الله ، سيأتي لنجدتهم إنقاذاً لمعبده من الدمار . وتقدم الرومان خطوة بخطوة فوق جثث اليهود ، حتى دخلوا قدس الاقداس في المعبد ، وحمل الغضب وحمى القتال أحد الجنود الرومان فأخذ مشعلاً وقذف به لأحدى النوافذ المذهبة في ذلك المعبد ، الذي كان آية في الفن ، وأحد عجائب العالم ، فسرت النيران تندلع بقوة .

وحاول القائد أن يمنع ما حدث ، ولكن عنف المعركة ، وههوه القتل التي تملككت الجنود — يدفعهم كرههم لليهود ، ويحدوهم حبهم لنهب وسلب الاموال والكنوز — جعلتهم يندفعون ، فإذا ما أتى طيطس بأمر أو يحاول وقف مسرى النيران - وهو يقف ملتاعاً متحسراً ، إذ يرى المعبد العجيب الصنع ، طمعة سائغة للنيران - لم يجد أذماً تمى أو تسمع .

ورقع نصف المدينة في أيدي الرومان ، بينما تصاعدت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان من المعبد ، وتراجع المتعصبون من اليهود يبغون استئناف القتال ، فوقف القائد الروماني يحاول نفيهم ، واعدأ بمنحهم الحياة . واليهود هم اليهود ، وأوها فرصة سانحة للمساومة ، فساوموا ، حتى ضاق الصدر ونفد الصبر ، فأصدر القائد أمره للجنود أن : احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود ودماؤهم وأعراضهم حلال لكم . وقذف المنجنيق بأحجاره ولهبه ، وتطايرت السهام تصيب الصدور ، وسددت الرماح إلى النحور وأعملت السيوف في الرقاب .

وأمن الجنود في القتل حتى ضاقت بالقتل نفوسهم ، وجمعوا من الغنائم ما بشتت به أطباعهم ، وامتلات أرض المدينة المقدسة بجثث القتلى وأشلأهم ، وتصاعد الدخان من كل مكان ، ودكت المدينة دكا ، حتى سويت بالارض هدماً وتخريباً ، وتحققت نبوءة عيسى بن مريم حين قال : « ستلقى هذه الارض بؤساً وعنتاً ، وسيحل الغضب على أهلها ... سيسقطون صرعى على حدة السيف ، ويسيرون عبيداً إلى كل مصر ، وستطأ أورشليم الاقدام ، .

مَذْهَبُ الصَّرْفَةِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر في السودان

هذا المذهب ينسب الى الشيخ ابراهيم بن سيار النظام العالم المعتزلي الكبير ، فلا نجد كتاباً من الكتب يذكر هذا المذهب وينسبه إلا نسبه للنظام ، على أنه أول من قال به ، وناضل دونه ، بل إن الخاطر لينصرف عند ذكر هذا المذهب الى النظام ، بل كلما ذكر النظام ورد عليه مذهب الصرفة ، فيكاد يكون رأى النظام وحده ، بل يكاد يكون أظهر آراء النظام .

ولكن هل كان ابراهيم أول من قال بهذا المذهب ؟ إن المذهب على ما فهمه العلماء ، وهو أنه يتضمن أن العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة وفضلاً ، ليس من ابتداع النظام ، ولا هو أبو عذره ، وإنما جرى الكلام بهذا على السنة قوم قبله ، ومن أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار ، الذي يرجع إليه الفضل في انتشار الاعتزال ببغداد بشخصيته الزاهدة ، وبقوة لسانه ، وفصاحته ، وقدرته على الوعظ ، وحسن القصص ، ويلقبونه (راهب المعتزلة) فهو يقول هذه المقالة ^(١) ويبعد أن يكون نفي الإعجاز عن القرآن ، كما يقول الكاتب الكبير المرحوم صادق الرافعي ، وإنما المستساغ ، والذي يقبله العقل ، وتميل إليه النفس ما يقوله الأستاذ أحمد أمين ^(٢) (ولعله كان يرى كبعض المعتزلة أن الإعجاز أتى من ناحية معانيه الدينية ، وإخباره بالمغيبات) .

ومن الظلم البالغ أن ننسب إلى واحد من هؤلاء المتكلمين المخاضين في الدفاع عن القرآن ، أنه لا يقول بإعجازه ، ولو أنه قال ما دخل في حسابنا ، ولا حساب أحد من عاصروه ، خصوصاً أنه لم ينقل أحد عن المزدار أنه كان ينفي الإعجاز عن

القرآن ، أما ما يقوله الشهرستاني عن زاهد المعتزلة وراهمهم من أنه كان كثير التكفير للناس ، ويوافقه عليه الأستاذان الرافعي وأمين . فأظن المبالغة فيه واضحة ، بل إنها مبالغة أقرب إلى الفكاهة منها بالجد الصراح ، وحسبنا هذه القصة التي ذكرها الشهرستاني من أنه كان ممن في تكفير الناس (حتى سأله إبراهيم بن السند مرة عن أهل الأرض جميعاً فأكفرهم ، فقال له إبراهيم : الجنة التي عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة من أصحابك) .

وما أشك في أن هذه الحكاية من تشنيعات خصوم المعتزلة عليهم ، وكم لهم من تشنيعات — كما سنذكره قريباً — . ومن قال بأن الناس قادرون على مثل القرآن (الجمعة بن درهم) مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، بل قال إنهم قادرون على أحسن منه ، وهذا رجل ساقط من الحساب ، فليس النظام — إذن — أول قائل بهذا الرأي فلم يختص به ؟ يقول الرافعي : غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به . . .

وهو تعليل مقبول لو كان له ما يدعونه ، فأما لم نقرأ للنظام دفاعاً عن هذا المذهب ، بل نقل المذهب غامضاً ، بما حل بعض علماء القرن السابع الهجري (هو على ابن حمزة صاحب كتاب الطراز) أن يقول : إن المذهب يحتمل أكثر من تفسير لما فيه من الإجمال والغموض .

ولما كانت الكتب التي طالعناها لا تكفي في الجزم بخلو مطبوعاتها من رأي النظام مفصلاً ، فقد رجعت إلى كتاب (إبراهيم بين سيار النظام) للدكتور عبد الهادي أبو ريدة ، وفتشت فيه لعل أجد أطلع على شيء يتعلق بهذا المذهب أكثر مما رأيته فيما بين يدي من كتب مشهورة ، فلم أجد ظفر بشيء ، بل صرح بأن آراء النظام ، بل وآراء المعتزلة جملة أخذت من كتب خصومهم ، ولا يوجد للمعتزلة كتب فيها تدرين مذاهبهم ، والاحتجاج لها ، فرجعت مؤمناً بأن احتجاج النظام لهذا المذهب لم ينقل منه شيء ، بل ذهب كل قول له فيه كما ذهب كثير من آراء المعتزلة واحتجاجاتهم ، ولولا أني رأيت الجاحظ يعرض لهذا المذهب في كتاب الحيوان لكان لي مندوحة في الشك والتردد الكثير في نسبة المذهب للنظام . وهنا مسائل لا بد من الحديث عنها :

(أولاها) أن النظام كان باتفاق القدامى والمحدثين ، الأصدقاء والأعداء . قوى الحجّة ، فصيح اللسان ، ناصع البيان ، واسع الثقافة ، يقول الجاحظ : « يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام » . ويقول : « لولا مكان المتكلمين لهلك العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلك العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل وأصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلك العوام من المعتزلة فإنّي أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً ، وفق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » ، ويقول أبو الحسين الخياط عن دين النظام ودفاعه عن الدين : « إن إبراهيم وأشباهه حاطوا التوحيد ونصروه ، وذبوا عنه ، وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ، ووضع الكتب عليهم ، إذ شغل أهل الدنيا بذااتها ، وجمع حطامها » .

ويحكى عن النظام أنه قال عند احتضاره ، ما يصرح بأنه يتبرأ من كل دين غير دين التوحيد ، وأنه ما اعتقد مذهباً إلا بعد ما اعتقد أن فيه رضا الله ، ثم يعقب الخياط على القصة بقوله « ودنه هي سبيل أهل الخوف لله ، والمعرفة به ، والله تعالى شاكر لهم ذلك » .

وقد يقال إن كلام الجاحظ من قبيل امتداح التليذ لأستاذه ، وكلام الخياط من باب حب المعتزلي للمعتزلي ، وهو حب كان يضرب به المثل قديماً ، ومع أننا نزياً بالجاحظ أن يحمله الاحترام لأستاذه على هذه الشهادة - وأمثالها كثير في كتبه - وبالخياط أن يعميه التعصب المذهبي إلى هذا الحد ، فنقل شهادات أخرى لا سبيل إلى الطعن فيها . فالرافعي الذي ذهب في نقص مذهب الصرفة مذهباً جعله يقول إنه يشبه قول العرب في القرآن ، إنه سحر ، يقول عن النظام : « حتى جاء رأيه في مذهب الصرفة دون قدره ، بل دون عليه ، بل دون لسانه » .

والأستاذ الكبير أحمد بك أمين ، وهو رجل بعيد عن فتنة الكلام ، وعصية المذهب يقول « كان النظام آية في النبوغ ، حدة ذهن ، وصفاء قريحة ، واستقلال في التفكير ، وسعة اطلاع ، وغوص على المعاني الدقيقة ، وصياغة لها في أحسن لفظ ، وأجل بيان ، ويقول الدكتور أبو ريدة بعد ما تتبع النظام في كل نواحيه ، ودرسه دراسة وافية عميقة « ولا مرأى في أن النظام كان صاحب الفضل الأكبر

في التغلب على المحنة التي تعرض لها الإسلام في عصره ، حين بدأت الثقافات الأجنبية والمذاهب الدينية ، والفلسفة المخالفة تغزو عقول المسلمين ، وحين بدأت نزعة الموالى الداخلين في الإسلام تسيطر في نفوسهم ، فنهض للذب عن الدين ، وكان أحذق من تكلم في عصره ، وأحرز أعظم النجاح فيما نهض له .

وبجانب هذه الأقوال نجد أقوالاً كثيرة أخرى تشهد بكفره وزندقته . وسوء سلوكه ، ومن أجمعها قول ابن حجر : ما في القدرية أجمع منه لأنواع الكفر ، ومع زيفه وضلاله كان أفسق خاق الله ، وهو داء قديم .

(ثانيها) أن المعتزلة نكبوا أعظم نكبة حين ضاعت كل مؤلفاتهم ، ومنذ أن دالت دولتهم في القرن الثالث الهجري لم تبق لهم قائمة حتى الآن ، وظلت آراؤهم طوال هذه العصور تلوكها السنة خصومهم ، وتتناولها بالتحريير والتبديل والتغيير ، ولا منكر عليهم ، ولا معارض لهم ، ولا مدافع عن نظريات المعتزلة ووجهة أنظارهم ، حتى في عصرنا الحاضر — وإن تحرر فيه الفكر — لا تدرس آراء المعتزلة إلا في كتب ألفها أصحابها للرد على نظرياتهم ، مع الاعتقاد سلفاً بأنها باطلة ؛ والناشئة يدرسونها على هذا الأساس ، ولا يعرف في هذا التاريخ الطويل أحداً استطاع أن يجهر بمذهب الاعتزال إلا ناله الأذى والضرر ، فطبعي أن تتأثر آراء المعتزلة ، وأن تتأثر النقول عنهم بهذه النظرة .

على أن النظام كان نصيبه من هذا أوفى نصيب ، فقد رمى بأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ورُمى بالفسق والزيف والإلحاد ، ويذكر الخطيب البغدادي في كتابه أصول الدين : أن النظام أعجب بقول البراهمة في إبطال النبوات ، ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك ، فأنكر إعجاز القرآن في نظمته ، وأنكر معجزات النبي من نحو انشقاق القمر ليتوصل بذلك إلى إنكار النبوة .

(ثالثها) أن المعتزلة ابتلوا برجل يقول عنه عبد الرحيم العباسي في كتابه (معاهد التنصيص) نقلاً عن الطبري : إنه كان لا يثبت على مذهب ، ولا يستقر على حال ، حتى إنه صنف لليهود كتاب البصيرة ، رداً على الإسلام ، لأربعمائة درهم أخذها فيما بلغني من يهود سامرا . فلما قبض المال ، رام نقضها ، حتى أعطوه مائة درهم أخرى ، فأمسك عن النقض . قلت : وما أشبهه بهلول مجنون الكوفة ،

فقد كان يغنى بقيراط ويسكت بدائق ، ويقول العباسي أيضاً نقلاً عن البلخي في كتابه (محاسن خراسان) : إنه كان في أول أمره حسن السيرة ، حميد المذهب ، كثير الحياء . ثم انسلخ من ذلك كله لأسباب عرضت له ، وكان عليه أكثر من عقله .

ويقول عنه الرافعي : إنه كان رجلاً غلبت عليه شقوة الكلام فبسط لسانه في مناقضة الشريعة ، وذهب يزعم ويفترى ، وقد أمعن في سخفه ، فلا تدرى أجعل إلهه هواه ، أم جعل إلهه في فيه . هذا رجل يتاجر بدينه وعقله ، وكان واسع الأفق في الكذب والاختراع ، وحكاية الخرافات عن أصحاب الفرق ، وهو أبو الحسين أحمد بن يحيى المشهور بابن الراوندي ، وقد رمى المعتزلة منه بداهية دهياء ، فقد كان على مذهبهم ، ثم جفوه وطردوه من مجالسهم ، وقسوا عليه ، فألف كتاباً سماه (فضيحة المعتزلة) وقد انبرى للرد عليه عالم من علمائهم هو أبو الحسين الخياط فألف كتابه (الانتصار) وإنما عنيت هنا بالحديث عن ابن الراوندي لأنه الذي نقل عن النظام قوله بالصرفة ، حكى صاحب الانتصار ، وزعم صاحب الكتاب — يريد ابن الراوندي — أن النظام يقول بالصرفة في إعجاز القرآن ، والذي نفهمه من العبارة أن الخياط ينكر أن يكون النظام قائلًا بهذا المذهب ، فهو يسنده بلفظ (الزعم) ولكن الذي يلفت النظر أن الخياط مر على المسألة مرأً سريعاً ، فلم ينفها ولم يثبتها ويحتج لها ، فبقى في النفس منها شيء ، وقد حكى الشهرستاني أن ابن الراوندي ينصب للجاحظ قوله في القرآن : إنه جسم يجوز أن يقلب مرة رجلاً ومرة أنثى .

والرجل وإن كان يبدو في حكاياته الكذب واضحاً جلياً ، لكن من يسمع يخل ، وقد صادف كتابه هو في نفوس خصوم المعتزلة فقالوا : رجل منهم يحكي عنهم فهو أهرق الناس بهم ، فلا شك أنه يحكي حقاً ، ويقول صدقاً .

وأعود فأقول إنه لولا ما ذكره الجاحظ من حديث عن هذا المذهب لكان يمكن للباحث أن يؤكد أنه مذهب نسب للنظام ولكن في كتب خصومه ، على أن الجاحظ ذكره ولم ينسبه لاستاذه ، ولا ذكر له فيه قولاً ، وسنتظرن فيما كتبه الجاحظ ، وسنعرف منه حقيقة هذا المذهب على ما يراه هو ، ونعرف احتجاجة له في حديثنا التالي إن شاء الله .

فِعَالُ الْمُؤَلِّفَاتِ فِي الْحَدِيثِ

خلاصة الكلام في أركان الاسلام

هذا الكتاب لحضرة المفضل الاستاذ (على فكرى بك) ، وهو كما يدل عليه اسمه يشتمل على شرح ما أجمل في الحديث الكريم وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وقد أهداه إلى حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقع في ثلاثمائة وست وثمانين صفحة بالقطع الكبير ، مطبوع طبعا متقنا على ورق صقيل جيد . وقد سلك حضرة المؤلف في شرحه طريقته المحببة ، وهي إيراد كل ركن من الأركان الخمسة وسرد ما ورد فيه من الآيات والأحاديث ، وشرحها شرحا مستوعبا لجميع تفصيلاتها بحيث لا يحتاج القارئ لغيره في تفهمها .

وبما حلّى الكتاب وأجزل فوائده إتيانه بخطاب منبرية في المناسبات لكبار الخطباء ، وبيان واف شامل للسفر إلى الحج من أول خروج الحاج من منزله إلى أن يعود إليه ، لم يدع صغيرة ولا كبيرة بما يلزمه من الضرورات ، وما يقتضيه السفر إليه ، من الألب والحاجات ، وما يجب أن يعرفه من الأماكن التي ينزل إليها ، والدعوات التي يدعو بها في زيارة آثارها مما لا يوجد في كتاب سواه ، فالحاصل على هذا الكتاب لا يحتاج إلى شيء ؛ مما يلزم الحاج إلى البيت الحرام ، وقبر النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد صدرت منه الطبعة الأولى وجدير به أن تصدر منه عشرات الطبعات .

قواعد الإملاء، تجديد وتوضيح

فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد سلبو المدرس بمعهد دمياط من محبي التجديد، والتجديد أساس التقدم، والباعث على بلوغ الغايات البعيدة في العلوم والصناعات، وما بلغ آباؤنا الأولون ما بلغوه من التقدم السريع، حتى أدهشوا العالم واعتبروا بحق واضعي الأصول الراسخة للدينية الحاضرة إلا بتحليلهم بروح التجديد، فلم يقفوا منه عند حد. وما انحط مستوى وجودنا المادي إلا لما غلبت علينا روح الوقوف والتعصب لكل قديم. وقد أرسل أستاذنا الشاب بعدة مقترحات إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية وفيها أساليب لتيسير القراءة مشاركة منه في المباراة التي أعلنها المجمع في هذا الشأن. وقد توصل بأسلوبه إلى اختصار مئات القوالب في الطباعة العربية إلى عشرات فقط حتى مع شكل جميع الحروف. مع تجنب الاختلاط والاشتباه في رسم الحروف، وإيضاحها وبيانها بأقرب الطرق وأجزما.

وقد وفق أيضاً إلى عمل شكل جديد صالح لوضعه فوق الحروف ولوضعه بينها في صلب الكلمة.

ووفق أيضاً إلى طريقة تلغى تعقيد القواعد الإملائية. كل هذا، كما يقول، مع إحكام الصلة إحصائياً تماماً بين القديم والجديد مع الاحتفاظ بميزة الاختصار في الكتابة العربية.

قال الأستاذ المؤلف في آخر رسالته:

« وقد وصلت في بحثي إلى النتائج الآتية: (١) زيادة نوع جديد من الشعر. (٢) تيسير معرفة تصريفات الأبحر في النوع الأول. (٣) قرب الصلة بين الإسم ومسماه. (٤) أبحر النوع الأول أحد عشر لا ستة عشر. (٥) سر الجمال في النظم العربي هو قوانين الكون العامة. »

فنحن نتظر أن يعلن المجمع اللغوي عن نتيجة المسابقة لنطلع على ما وفق إليه المؤلف وعلى سائر ما ذكره بصدد ذلك. وأنتا لتشجعه على إنماء ملكته التجديدية بنشر كل ما يوفق إليه من ذلك، فلأن يكون الأزهر مصدر التجديدات فذلك مما يزيد رفعة في نظر المسلمين، ويجعل لرجاله مكانة ممتازة في قلوب جميع الناطقين بالضاد.

فهرس

الجزء الخامس — المجلد الحادى والعشرون

الموضوع	صفحة
كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر فى احتفال الأزهر	٣٨٥
بعيد الميلاد الملكى	...
الدين والدنيا معا	...
الحمداء	...
يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل	...
الإصلاح الاجتماعى	...
الدين والأخلاق	...
العبرة فى ذكريات العظام	...
مكارم الأخلاق	...
مراقبة الدائن أموال مدينه	...
لغويات	...
سعيد بن المسيب	...
نظرات فى توثيق المعاملات	...
رسالة الحياة وكيف تؤدى	...
فى كتاب الله	...
أعلام الأزهر	...
النبي والشعر	...
الصنع البديعى فى مدرسة السكاكى	...
موضوع علم الأخلاق	...
هدى الإسلام فى الزواج	...
تدمير أورشليم	...
مذهب الصرفة	...
تقاريط	...